Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino

NÚM. 4 AÑO 1914 TOMO IV

CORRESPONDENCIA DIPLOMÁTICA entre Granada y Fez. (Siglo XIV).

XII

Carta del sultán de Granada Mohamed V a Abulnan Fáres, sobre el estado político creado en Castilla por las discordias entre D. Pedro el Cruel y sus hermanos y sobre las treguas de paz puestas entre ambos reinos (1354-1357)

Por los documentos publicados en los artículos que preceden, inmediatos a éste, se averiguaba que muerto D. Alfonso XI ante los muros de Gibraltar y descercada esta plaza por el rápido levantamiento del campo cristiano en los precisos instantes en que los dos sultanes, Abuinan de Fez y Yúsuf de Granada se disponían a solicitar de aquél, por sus embajadores, un tratado de paz, el nuevo rey de Castilla, el popular D. Pedro I el Cruel, se avino desde luego y de buen grado al deseo de los sultanes moros, si bien exigiendo, particularmente al de Granada, algunas condiciones humillantes, como la de pagarle un tributo anual y la de acudir a auxiliarle con algunos cientos de jinetes en el caso de verse combatido en su gobierno. La paz quedó así pactada en Castilla, aceptando los sultanes moros aquellas condiciones que desde su fundación se exigieron siempre al reino de Granada, no sin gran repugnancia de su parte, obligados siempre por fuerza mayor y con el reservado propósito firme de aprovechar un estado de debilidad en Castilla, para sacudirse de ellas y lanzarse en reivindicación de las plazas que sucesivamente venían perdiendo en Andalucía.

Asesinado el sultán Yúsuf por un demente en Octubre de 1354, habiendo mantenido en sus últimos años de vida relaciones pacíficas y

aun en cierto aspecto amistosas con D. Pedro, sucedió a aquél su hijo mayor Mohamed V, quien sin duda alguna, hubo de ratificar el tratado de paz celebrado entre su padre y el susodicho rey de Castilla y seguir con este reino la misma política de relación aparentemente amistosa que aquél le marcara en los últimos años de su vida. Entretanto, la discordia nacida entre D. Pedro y sus hermanos bastardos, en particular el conde D. Enrique y D. Fadrique, maestre de Santiago, se había resuelto en franca guerra interior, debilitando mucho el poder de Castilla, especialmente desde el año 1352 al 1356, en que sometido ya don Fadrique a la soberanía del rey y refugiado en Galicia D. Enrique, temeroso de alguna celada de D. Pedro, aquél pide a éste un salvoconducto para salir de sus reinos e ir a establecerse en Francia.

La carta que pongo a continuación, carece de fecha en los dos códices del Escorial, de que puedo servirme; mas por las referencias y noticias que en aquélla se expresan sobre los sucesos de Castilla, de que acabo de hacer somera indicación y cuyo tiempo conocemos por las crónicas castellanas, se llega a inferir que fuese escrita en las postrimerías del año 1356, o a lo más en el comienzo del 1357, cuando aún se ignoraba en la corte de Granada que D. Enrique, de quien se sabía que estaba refugiado en Galicia, no había abandonado esta región e ido a establecerse en Francia, emigración que puso en obra antes de terminarse el año 1356.

Por lo demás, la carta siguiente nos hace pensar que el sultán de Fez, Abuinan, informado de alguna manera sobre los trastornos y la lucha interior sufridos por Castilla en esos primeros años siguientes a los pactos celebrados por Yúsuf y ratificados por su hijo y sucesor Mohamed V, hubo de pedir explicaciones a este último y aun presentarle quejas de que nada le dijese sobre el estado débil de Castilla y de que siguiera favoreciendo a su rey con el tributo y demás ventajas del tratado de paz, por lo cual dejaba escapar tan buena ocasión para romper las treguas con cualquier pretexto y buscar el desquite de los reveses que de tiempo atrás venían sufriendo.

Mohamed V ofrece al de Fez sus excusas sobre el particular, describiéndole el estado político y social de Castilla en el tiempo de referencia y los motivos que tiene para no romper las treguas de paz todavía; aunque sí espera que durante el tiempo de éstas podrán aprestarse mejor para buscar en su día el desquite tan deseado.

He aquí la parte de la carta que puede ofrecernos interés histórico:

.....[1]) فنحن نجهد في الشكر بحسب الاستطاعه ، ونصل الثناء اليوم باليوم والساعة بالساعه ، ونجلو وجه العذر الذي يودّ دعوى الغفلة والاضاعه ، ونتبين ما عندنا في الفصول التي قررها فيما ذل من النصرى من الفتنة والمجاعه ، وعموم الشتات وخلاف الجماعه ، فاما ما ترتب فيه العتب ، مما اغفله الكتب ، بما آل اليه امرهم من شتات ذات البين ، والمسغبة المتلفة للاثر والعين ، فيعلم الله اننا لم يتصل بنا نباء الّا بعثناه على غرّه ، ولم نختزل شيا من حلوه ولا مرّه ، ولا جلب الينا خبره الا اهديناه عند حلب درّه ، وركضنا طرفه بعد تقليبه وفرّه ، فكيف بمثل هذا الذي لوثبت عندنا خبره لاتمر لدينا رفع التحمل ، وتخفيف كمل ، واضاعة غيم ، وحصر ضيم ، ومشقة عوم ، واضاقة حتم ، ولم نزل نبعث العيون وتذكيها ، ونعيد الرسل ونبديها ، فلم يصح عندنا مما اتصل بكم نقل ، ولا شهد بغير ما اطلعناكم[2]) عليه حسّ ولا عقل ، ولسنا من الغفلة بحيث لا نشعر بضعف عدو قرب من جواره ، ولا من الرقد في المنّه بحيث يظهر منّا احتقاره ، ولا من نسيان ما يجب لابوتكم بحيث لا تهدى لكم من قبلنا انباء عدوكم واخباره ، وانما هي اقوايل لا عبرة بقايلها ، وتمويهات يظهر الكذب على مخايلها ، والذي صحّ عندنا في امر النصرى وسلطانهم ان اخوة ملكهم ومن كان على مثل رايهم لم ينازعوه يوما في طلب ملك ، ولا سعوا على مهجته بهلك ، وانما خطبوا منه خطبا كانت بايديهم ، ورتبا نالوها من ابيهم ، انتزعها لما ساء ظنّه فيهم ، شهدوا له الرجوع الى خدمته حيث كانت ، وذلّت سبالتهم في التماس اعادتها وهانت ، او الاعضاء عنهم بمواضعهم الى تمام اربعة اعوام بمهادنة مبرمه ، وموادعة محكمه ، مدون عند انقضايها على حكمه ، ويلقون يد الرغبة اذعانا الى سلمه ، ويجعلون نواصيهم بيدى عقابه ان شاء الله او حلمه ، فرماهم بدايهم ، وعمم عن ندايهم ، وزاحمهم بمنكب الملل ، واضطرّهم الى مهاوة الهلل ، واستخلص منهم ما كان بايديهم من المدن الكبيره ، والقواعد الخطيره ، كطوروا او

1 Cód. 1825 (B) fol. 149 y sigs. y 306 (C) fol. 155 v., con extensos espacios vacíos y supresiones. Paso por alto las primeras partes de la carta, por ser de mera salutación. 2) En B أطلعناهم.

طليطلة وغيرها من الامنات الشهيره ، وتحصلت امه وزوجه المولية ان عليه في قهره ، ودخل اخوه المبشر في امره ، واستظر القند ببلاد جليقية شريد خوفه وطريد ذعره ، فتخيرا بين خطّتي التحسب من الخروج عن عمالته ، او الدخول على التحكم في اعماله ، واما حالهم من طريق المجاعة الفاشيه ، والضيقة الناشبه ، والمسغبة المهلكة للحرث والماشيه ، فالذي صحّ عندنا فيها ان الاحوال ببلاد الاندلسيه ، في ذلك متقاربه ، وان المجاعة شملت الناس قاطبه ، والسنة لم تختص بشدتها البلاد الكافره ، ولا اعتمدت الفية الرابغة عن الحق الفاجره ، انما هو ازل شمل البلاد والصياصي ، وقحط نال جهتي المطيع والعاصي ، فمن كانت له قوة على احتمال ظهر صبره ، ومن قلّت ذات يده افتضح امره ، وبلادكم الشمالية فيما بلغنا سليمة من الضر ، ممدودة[1]) بالسحاب الغر ، تمد البلاد الساحلية منها مرافب البر ، ومع هذا فاذا اعتبر قرارهم امام المجاعة وهم عدد قليل ، لم يلف فيهم مثيل ، ولا من لديه متاع أثيل ، انما يفر منهم ذاعر يسترفد كده ، ويتضجع عمله ، او صعلوك لا مال له ، او صاحب حسيفة من حدّام اخوة سلطانهم ممّن لم يقدر على ضبط ما جعله بيده ، وضاق عن مقاومة ما يجاوره لقلة عدده ، ونقصان جلده ، وكلا الضيفين لا يعول على نقله ، ولا يستند الى دينه ولا الى عقله ، واذا اوردتم تحقيق امر او استربتم في خبر زيد او عمرو فعينوا عينا يضطلع بنقل صور الاحوال ، ويكون ميدقا للاقوال ، يتوجه مورّنا ببعض الاغراض التي تدعو الى المراوضة والمحاوره ، في الشكايات التي تضطرّ اليها المجاوره ، حتى تتبين لكم الاخبار ، التي يذيعها الاختبار ، هذا ما عندنا من حاشتي العدو الذي همّنا موازنة امورهم ، وحذر شرورهم ، قرّرناها لكم مع العلم بان العزة لله ولرسوله وللمومنين ، والعاقبة للمتقين ، .....[2]) ولو علمنا ما استاثر الله بمولانا قدس الله روحه ، وطيب ضريحه ، وقد وجب انتباه العزائم من مراقدها ، وارتفاع حكم التسلم لوفاة عاقدها ،

1) En B محدوده poco inteligible; en C falta todo el pasaje en que se halla esa palabra. 2) Omito algunas frases sin interés.

ان لاخوته قدرة تستمرّ بها منازعتهم لاخيهم زمنا فسيحا ، او يخمد منه ريحا ، لاغتنمنا الكره ، ورفعنا المعرّه ، ولاكنا علمنا بان مدّتهم بما بقي من مدّة الصلح القديم غير وافيه ، وان قدرتهم بكف العادية عن بلادهم غير كافيه ، فحرصنا على الاستمساك بالسلم ليتمهد القطر ، ويتقرر الامر ، ومع اليوم غد ، ولكل شيء امد ، ولنا منكم بعد الله تعلى معتمد ، .....[1]) واما ما بغيتم من بذل الضريبة فامر تنفر منه الهمّه ، وتسوغه الشدايد امد لهمّه ، وتباه الشفقه ، ثم تدعو لتسليمه الموفقه ، وللضرورة حكمها ، وللعذرة ان شاء الله يومها ، وقد انصرمت سنون عديده ، واماد مديده ، وعهود بعيده ، لم يقع فيها بهذه البلاد بين المسلمين وعدوهم سلم ، الا عن ضريبة تحكم ، وحصون اليهم تسلّم ، وعضضاة تمضى كما شاء الله وتبرم ، فلم ينته اجتهاد الا مع الارتياب بجانبكم الاحمى ، والاستناد الى ابوتكم العظمى ، ان عقدنا بضريبة ثم يقترن بها والحمد لله اسلام معقل ، ولا تشتط في حالة منذره او عدد مثقل ، الا ورايتنا ان قد فضل حديثنا القديم ، وسكنا بالهدنة هذا الاقليم ، وعلى تقرير ان يقع ارتفاعها ، ويشمل من قدرة الله دفاعها ، فانّنا لما حضر لدينا رسولاكم فلان وفلان اجلنا قداح النظر بناء على ما قررتم من الخبر ، وحوما على الغرض المعتبر ، فلم نجد وجها يسوّغ حلّ ما ربط ، ولا فسخ ما اشترط ، لما تقرر في العقد من ايمان شانها كبير ، ومحلها من الرعى خطير ، ووقع عليها منّا العقد ومنكم الامضا ، واحكمت فصولها العدالة وسجّلها القضا ، وحضر الخصم ، ووجب الاقتضا ، ولو عثر على وجه يخرج عن العهده ، ويحلّ لنا محل نعقده ، لكنا نعلم سرور العدو بنبذنا نعهده ، وخفّة وطاتنا الا ان شاء الله على جنده ، فانه اعتاد ان يكون مطلوبا ، ورأى التماسنا سلمه وحوبا ، اذ الاحوال بهذه الجزيرة المنقطعة تضطرنا الى التماس سلمه ، وحاجتنا الى مهادنة لا يغيب عن علمه ، .....[1]) وفي مدة هذا الصلح الذى عقد وابرم ، وامضى وتمم ، نرجو ان يقع الاستعداد ، وتتوفر الاعداد ، وتعرض الاجناد ،

1) Omito algunas frases sin interés.

وتمهد الثغور والبلاد ، فاذا تقتضي منه الامد ، وكمل بالوفاء المقصد ، فنتم ان شاء الله على اعلى النظرين ، واكرم الاختيارين ، من جوار مقصور ، وعدد موفور ، او سلم مقترن بظهور ، هذا ما عندنا عرضناه عليكم عرض الدلال ، ومحلكم محل الغضاء والمهل ، وفضل وعدل وجلال ، والله المستعان وعلى كل شيء ذي بال ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم.

«Nos hemos puesto todo esfuerzo en el agradecimiento según nuestra posibilidad, continuamos rindiendo alabanzas día por día y hora por hora y mostramos la cara de la excusa ante aquel que desea hacer la reclamación de negligencia o descuido y dilucidar lo que haya de nuestra parte en los juicios que formó respecto de la lucha interior, del hambre, de la general división y total contrariedad mutua sufridas por los cristianos. Y en cuanto a lo que pueda resultar de reproche por haber descuidado escribir sobre la perturbación manifiesta y la penuria ruinosa, palpable y evidente a que ha sido reducido el gobierno de aquéllos, bien sabe Dios que no ha llegado a Nos una nueva sin que al punto la hayamos enviado, no hemos quitado de cosa alguna su parte dulce o amarga ni nos ha sido transmitida noticia que no la diésemos al ser extraída su leche fresca, y después de considerarla y examinarla lanzamos a galope su caballo de misiva. ¿Y cómo no proceder así tratándose de un asunto tal como éste, cuya noticia al asaltarnos, nos daba como fruto el quitarnos de encima la carga, un alivio pleno, la disipación de las nubes, el impedimento de la opresión, la dificultad de la firme resolución y la estrechez del juicio? No cesamos de enviar y despachar espías y de hacer que vayan y vengan los embajadores, y no se confirma ante Nos referencia alguna de lo que ha llegado a vuestro conocimiento, ni ningún sentir ni entender testifica otra información que la que os tenemos hecha. Y no ha habido negligencia de nuestra parte, pues que no hemos podido conocer la debilidad del enemigo cuya vecindad nos es inmediata; ni arrogancia en el deseo, puesto que su condición humilde es manifestada por nosotros mismos; ni tampoco ha existido olvido de los respetos debidos a vuestra Paternidad, en que no os hayan sido dadas de nuestra parte nuevas o informaciones sobre nuestro enemigo, sino que todo eso no es otra cosa que habilillas que acusan falta de discreción en el que las profiere, o ilusiones en cuyos indicios se mostrará patente la mentira.

Lo que aparece cierto ante Nos sobre la situación de los cristianos

y su estado, es que los hermanos de su rey y los que siguen su partido, no disputan actualmente a aquél el reino, ni buscan su muerte. Únicamente le han demandado las tierras que eran en poder de ellos y las dignidades que obtuvieron de su común padre, los cuales aquél les arrebató al malquistarse con ellos, y le han jurado volver a su servicio donde las referidas tierras están. Se han humillado y se han inclinado vergonzosamente en espera de que les sean devueltas las tierras y dignidades o que aquél retire su vista de ellos dejándoles en sus lugares, hasta que se completen cuatro años de la paz ajustada y de la promesa convenida, en tanto que fuesen concluidos bajo su autoridad. Y se han sometido de buen grado a la paz de aquél y en poder de su justicia, si quiere Dios, o de su clemencia han puesto a sus adictos principales.

Mas (el rey) rechazó las peticiones de sus hermanos, se hizo sordo a sus gritos, les obligó a dar la espalda al reino y les forzó a lanzarse a los riesgos de la perdición. Y recuperó de ellos las ciudades grandes y capitales importantes que tenían en su poder, como Toro o Toledo y otras poblaciones famosas.

Su hermano Fadrique ha entrado en la obediencia del rey, y el Conde permanece en las villas de Galicia, huyendo y desterrado por el temor y miedo que le tiene, y escogiendo entre cuál sea el mejor de dos partidos a tomar: o la salida de su distrito o someterse a la obediencia en su provincia.

Por lo que a la situación de los cristianos, de hambre extendida entre ellos, de angustia creciente y de carestía mortal para sus campos y ganados, lo que entre nosotros es sabido de cierto es que las circunstancias en las ciudades españolas están próximas a todo eso y que la indigencia comprende a las gentes en totalidad. Pues el año no hace su violencia cosa exclusiva de las ciudades infieles, ni propia tan sólo de la gente que no sigue la línea derecha, la que se aparta de la verdad. Aquél no es más que una angustia que envuelve a ciudades y fortalezas, una carestía que alcanza a los dos bandos, al obediente y al rebelde, y quien tiene poder para sufrirla, muestra paciencia resistente; mas es vergonzosa la situación de aquél cuya fuerza es pequeña.

Sus ciudades del Norte, por lo que sabemos, libres de la calamidad, asistidas por la nube de la luna nueva, socorren a las villas costeñas de ellas con vehículos por tierra, y con esto aun cuando ha sido observada la huida de ellos ante la presencia del hambre, han sido pocos los fugitivos y entre éstos no se encuentra persona de calidad, ni quien tenga bienes raíces, tan sólo de ellos ha huido el envilecido porque le haya sido demandada su industria o se haya querido aprovechar su labor, el mendigo sin bien alguno para él, o el enemigo servidor de los hermanos

de su rey, de aquellos que no han podido mantener lo que fué puesto bajo su mano y les fué difícil resistir la oposición de lo próximo a ellos por escasez de tropas y falta de firmeza. Y no hay que poner confianza en la relación de todos estos visitadores, ni dar crédito a su religión, ni a su entender. Cuando tratéis de confirmar la verdad de un asunto o dudéis sobre la información de un Zeid o de un Amru, reflexionad atentamente para que podáis formaros por la narración la idea de las circunstancias, y serán examinadas las palabras pasándolas por cuentagotas para que se descubra al que oculta alguno de los propósitos que tienden a la adulación y al coloquio sobre quejas, a que obliga la familiaridad, a fin de que podáis discernir con verdad entre las nuevas que haga públicas la información.

Eso es todo lo que conocemos de ambas situaciones del enemigo, cuyos asuntos nos interesa mucho examinar en su justo grado y evitar sus daños, los cuales exponemos a Vos, no obstante saber que el poder es de Dios, de su Profeta y de sus creyentes, y el fin último para los que temen a Dios. Sabiendo Nos todo cuanto concedió particularmente a nuestro Señor (el profeta Mohoma) Dios santifique su espíritu y perfume su sepultura—, es preciso ya hacer que despierten de sus lechos los firmes propósitos, y hacer que cese la obligación de la tregua de la paz, por haber muerto el que la pactó. Si los hermanos de él (de don Pedro) tienen poder bastante para disputarle largo tiempo o aquél se enfría en su ardor bélico, seguramente aprovecharemos la ocasión y quitaremos la ignominia. Aunque nosotros sabíamos bien que su compromiso pactado en lo que restó de tiempo de la tregua antigua, no fué cumplido, y que su poder para evitar la injusticia en sus ciudades no era suficiente, nos movimos a aceptar la paz para dar tranquilidad a las comarcas y fortaleza al gobierno; mas con el día viene la mañana y todo tiene su límite, y nosotros tenemos en Vos, después de Dios, un firme apoyo. Y en cuanto a lo que demandáis sobre la donación del tributo, es un asunto que repugna al corazón y que hacen posible las adversidades del tiempo, lo rechaza la piedad, mas reclama su entrega la conveniencia, y la necesidad tiene su término y queriendo Dios, la aparición de la luna nueva tendrá su día. Ya han transcurrido muchos años, prolongados términos, y tiempos distantes en que no recayó la paz en estas ciudades entre los muslimes y sus enemigos, a no ser a costa de pagar el tributo y de entregar las fortalezas. Mas los tiempos duros pasan y retornan, como quiere Dios. No hubiese llegado el esfuerzo, si no se contase con el temor que infunde vuestra Excelencia invulnerable y con el apoyo en vuestra Paternidad muy respetada, a que pactásemos un tributo en el cual no fuese unida—y Dios sea alabado—la entrega de

algún castillo; ni se hubiese pasado de los límites en transigir con una condición onerosa o con una cantidad insoportable, si no hubiésemos visto que nuestro proceder actual es más ventajoso que el antiguo, que con la tregua de la paz restablecíamos la tranquilidad en esta región, y teniendo la seguridad que la suspensión de aquélla ha de ocurrir y ha de ser evitada por el poder de Dios.

Ciertamente, Nos al presentarse en nuestra corte vuestros dos embajadores, fulano y zutano, retardamos dirigir las flechas de nuestra atención tocante a la noticia que ratificábais y sobre el propósito observado; porque no encontramos causa que permitiese desatar lo que estaba anudado y desunir lo que se había estipulado, por virtud de los juramentos graves que se habían hecho constar en el pacto, de los que es asunto grave que se desaten los gobernantes, y sobre los cuales había tenido lugar el consentimiento de nuestra parte y de la vuestra la firma, cuyos artículos habían quedado justamente establecidos y registrados por los jueces, se había hecho presente el litigante adversario y quedaba obligatoria la ejecución. Aunque se tuviese la inspiración de algún motivo para salir del compromiso y desasirnos del pacto de aquél, sabemos, sin embargo, que se regocijaría de que nosotros lo violásemos y acometiésemos, si quería Dios, a sus tropas; porque él está acostumbrado a que se le pida la paz y juzga que nuestra demanda es forzosa, por causa de que las circunstancias de incomunicación en estas ciudades nos obligan a solicitar su paz, y nuestra necesidad de la tregua en las hostilidades no se oculta a su conocimiento.

Y en el transcurso de esta paz que ha sido ajustada y ratificada, signada y concluída, esperamos que sobrevenga el aprestamiento, que se hagan numerosos los soldados, revistados los ejércitos y perfectamente guarnecidas las fronteras y ciudades. Y cuando de aquélla termine el plazo y se cumpla el propósito, estaremos, si quiere Dios, en disposición de seguir la más conveniente de estas dos miras y la más honrada de estas dos preferencias, la de tener una vecindad debilitada y un ejército abundante o la de una paz que lleve unido el triunfo. Esto es todo lo que os exponemos con sinceridad. Y vuestra Alteza es la estación del poder, de la perfección, de la nobleza, de la justicia y de la excelencia. Y Dios es el auxiliador y que atiende a toda cosa, y El, que es alabado, haga duradera vuestra felicidad y guarde vuestra gloria. Y la salvación sea sobre Vos.»

XIII

Cartas del sultán de Granada Mohamed V, hijo de Abulhachach Yúsuf al Jefe de Meca y a los sultanes de Africa, notificándoles importantes conquistas y terribles algaras que ha realizado sobre las plazas y tierras fronterizas de los cristianos de Castilla

Todo lector aficionado a nuestra historia echará de ver fácilmente que los hechos de armas victoriosos que se atribuye el sultán de Granada Mohamed V en las cartas que indico arriba y de que doy a continuación sus porciones más sustanciosas, son aquellos que, como realizados por el susodicho sultán y con referencia a los años de 1366 a 1368, aparecen expresamente consignados en la conocida «Crónica de D. Pedro I de Castilla» por López de Ayala, al cual vienen copiando en mayor o menor integridad sobre el particular, todos nuestros historiadores siguientes.

Sabemos, en efecto, por la referida crónica, que así que vió don Pedro cómo su hermano bastardo y rival D. Enrique, conde de Trastamara, tenía cercada a Toledo, trató con Mohamed V que viniese a ayudarle y juntarse con él para ir sobre la ciudad de Córdoba. Acude el de Granada con un ejército de 7.000 jinetes y 80.000 peones y unido a la gente de D. Pedro, atacan a Córdoba sin lograr tomarla. Pasados algunos días en el real contra Córdoba, se retira el sultán de Granada hacia su tierra y D. Pedro hacia Sevilla. Mas pronto vuelve a salir Mohamed V con fuerte ejército y esta vez cerca a Jaén, entra en la ciudad por asalto y sus moradores cristianos que pueden escapar de la muerte o del cautiverio, se acogen a la fortaleza. Esta es estrechamente cercada y sus defensores compran a buen precio la retirada de Mohamed y su hueste. Mas la ciudad ha sido saqueada e incendiada, destruídos sus muros y asolados sus campos.

Otra vez vuelven D. Pedro y Mohamed a juntarse contra Córdoba sin poder entrarla. Entonces parte el de Granada para el obispado de Jaén, toma por fuerza de armas a Úbeda y la entrega al saqueo y al

incendio. Como en Jaén, los de Úbeda que pueden, se refugian y hacen fuertes en su alcazaba. Combate el de Granada a Andújar que no logra tomar. En esos tiempos, con ayuda de D. Pedro, entra en las villas de Marchena y Utrera, recogiendo gran botín y muy crecido número de cautivos. Además de esto, agrega López de Ayala, los moros recobraron muchos castillos, como Belmez, Cambil, Alhavar, Turón, Hardales, el Burgo, Cañete y las Cuevas e hicieron mucho daño en tierra de cristianos por la división que había entre ellos.

En el siguiente año, 1369, a las instancias de D. Pedro para que acuda Mohamed en su ayuda para ir a descercar Toledo puesta en grave aprieto por D. Enrique, responde enviándole 1.500 jinetes que con las gentes de D. Pedro, sufrieron el desastre de Montiel.

Leyendo la narración cristiana cuyo resumen acabo de hacer, sacamos como impresión dominante, que los hechos en cuestión, hubieron de ser realizados por el sultán granadino de perfecto acuerdo, con plena autorización y a gusto de D. Pedro el Cruel; toda vez que aquél movió su campo y saltó la frontera cristiana, al ser llamado con insistencia por este último, para que, en virtud de sus tratos convenidos y en agradecimiento a los favores grandes que le debía desde que se viera en las mismas circunstancias que él o en más graves aún, corriese en su ayuda con toda su gente y poder, ya que se encontraba reciamente combatido por su rival y en situación casi desesperada de triunfar.

Empero después de la lectura de las cartas que subsiguen, se encuentran perfectamente interpretadas la intención y actitud de Mohamed con sus hechos de armas referidos, en el pasaje del famoso historiador Abenjaldún, contemporáneo y amigo del susodicho sultán Mohamed, en el cual se lee: «que los cristianos tomaron las armas contra su rey Pedro y ayudaron al Conde para que le arrebatase sus estados y le rechazase hacia la frontera muslím. Mohamed Abenalahmar, a quien Pedro pidió ayuda, se apresuró en aprovechar tan excelente ocasión para hacer la guerra santa y llevar la desolación a la tierra de los cristianos. Después de haber destruído muchas de sus fortalezas y poblaciones, tales como Úbeda, Jaén y otras capitales de distrito, se volvió con sus tropas a Granada. La lucha continuó entre Pedro y su hermano hasta que el segundo logró vencer a aquel y quitarle la vida»[1]).

La afirmación del historiador Abenjaldún tocante a que en el ánimo de Mohamed V entraba por mucho más el deseo del desquite o de la revancha, que el de ayudar a su amigo D. Pedro con sus repetidas algaras y ataques contra las ciudades importantes de la frontera cristiana,

1) Hist. des Berb., trad. de Slane, IV, 380.

aprovechando la división reinante en Castilla, aparece en efecto plenamente confirmada por la lectura de los documentos siguientes, extractos de cartas que el sultán de Granada, por mano de su visir Abenaljatib, escribe al Jefe de Meca y a los sultanes de Fez y de Túnez.

Doy en primer término la que con fecha de Octubre de 1369 envió con un su embajador al Jefe de la Meca, juntamente con una *risala* o escrito de los hechos victoriosos por él realizados con destino al sepulcro del Profeta; por cuanto en aquélla se consignan de una manera breve y clara el orden y resultados de las referidas algaras, hechas por Mohamed a título de guerra santa y con el firme propósito de estragar y debilitar las regiones andaluzas de los cristianos fronteras a Granada y de cobrar el mayor número posible de sus castillos y plazas que pudieran servirle de puntos de protección o defensa de su reino en el tiempo venidero. En las repetidas expediciones mandadas por el sultán Mohamed en persona, son conquistadas primeramente la ciudad de Priego y la importante fortaleza de Iznájar. Luego es tomada Utrera por asalto, con muerte y cautiverio de muchos de sus habitantes. Sigue el cerco de Jaén que es entrada igualmente a saco e incendiada, y son cautivados muchos de sus naturales y defensores, que no pudieron acogerse a su alcazaba, única parte que se salvó de la destrucción. Después es arrasada Úbeda y estrechamente cercada Córdoba, a cuya salvación ayudó el mal tiempo, que fué parte para que alzase Mohamed su real, si bien jurando volver a combatirla. Entretanto son cobrados varios castillos fronterizos, como Rute, Alhavar y Campil, y por último la importante plaza de Algeciras con bastante facilidad.

La carta dirigida al Jefe de la Meca, suprimidas sus primeras partes de mera salutación, es como sigue[1]):

وصدر عني في مخاطبة صاحب مكة شرفها الله وتوجه الرسول بها عن السلطان رضي الله عنه صحبة الرسالة لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم معرفا بجملة الفتوح التي فتح الله بها على المسلمين بالاندلس لهذا العهد وذلك في شهر ربيع الاول من عام احد وسبعين وسبعمائة[2]).

1) El Jefe de la Meca destinatario de la carta es llamado ابو الحسن عجلان بن السلطان اسد الدين ابي الفضل رميثة بن محمد بن ابي سعيد الحسني Abulhásan Achlan, hijo del sultán Asadedin Abulfádel Romitsa, hijo de Mohamed, hijo de Abusaid Alhasani. 2) Códice 1825 (B) fol. 52 y sigs. y 306 fol. 50 y sigs., observándose en este último las lagunas y lugares vacíos que ofrece a cada paso todo su texto. Omito las primeras partes de mera salutación.

..... والى هذا... فان الجهاد والحج اخوان يوتضعان ثرى المناسبة سفرا وزادا ، ويفترقان محلا ويجتمعان جهادا ، ويرفعان منارا سمى عمادا ، ووطننا والحمد الله على هذا العهد هو المخصوص بكمال هذه المزيه ، والقيام بكفايتها البرية والبحريه ، السليمة من الضلال البريه ، وهذا نسب واشجة عروقه ، وذمام صادقة بروقه ، ومتات لا يفضله متات ولا يفوقه ، ونحن نعرفكم باحوال هذا القطر المتمسكة فروعه بتلل الجرثومة الراسيه ، الممدودة ايديه الى مثابتها المتصدقة بالدعاء المواسيه ، فاعلموا ان الاسلام به مع الحيات في سفط حرج ، وامر مرج ، وطايفة الحق قليل عددها ، منقطع الا من الله مددها ، مستغرق يومها في الشدّة وغدها ، فالطلايع في قنن الجبال تنور ، والمصحر من بيته مغرور ، والصيحة مع الاحيان مسموعه ، والاعداء لردّ ما حازه الفتح الاول مجموعه ، والصبر قد لبست مدارعه ، والنصر قد التمست مشارعه ، والشهداء تجدّر اشلاءهم القشاعم ، وتحتفل لها منهم المطاعم ، والصبيان تدرب على العمل[1]) السلاح ، وتعلّم المثاقفة[2]) كما يعلم في القران الالواح[3]) ، وآذان الخيل مستشرفة الصياح ، ومفارق الطايحين في سبيل الله تفلى بايدى الرياح ، والمآذن تجيبها النواقيس مناقضه ، وتكافحها مكابرة[4]) ومعارضه ، والعدد لا يبلغ من عدد الكفار عن الانتشار معشار المعشار ، الّا ان الله عزّ وجلّ حلّ بولايتنا المخنّق المشدود ، وفتح الى اليسر[5]) المهيع المعفود[6]) ، واضفى ظل الامن الممدود ، والهم وله الشكر على الالهام ، وتسديد السهام ، والحمد لله الذي يقود مدارك الافهام ، الى اجتهاد قرّن به التوفيق ، وجهاد فتح به الى التجارة المنجيّة الطريق ، سبحانه من رحيم يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ، وكريم يلهم ليثيب ، ولطيف يامر بالدعاء ليجيب ،

1) Falta en B. 2) En C وتعلم احكام الجهاد. 5) En C كما يعلم الفرقان في الالواح. 4) En C وتراجعها معاصية. 5) En C التيسير 6) En C المسدود.

فتحركنا[1] لهذا العهد حركات ساعدها والحمد لله السعد ، وبتولّى امرها ونصرها من لـه الامر من قبلها[2] ومن بعد ، ففتحنا مدينة برغه الفاصلة كانت بين البلاد المسلمه ، والشجى المعترض في نحر الكلمه ، ثم نازلنا حصن عاشر ركاب الغارات الكافره ، ومستقرّ الشوكة الوافره ، فرفع الله أمره الثقيل ، ودان من عترته المقيل ، ثم قصدنا مدينة اطربرة بنت خاضرة الكفر ، وعرين الاسود الغلب وكنس الظبا القفر ، ففتحناها عنوة أضرمت البلد نارا ، واستاصلت اهله قتلا واسرا ، وملات البلاد سبيا تعددت الافه ، وغنما شذت عن العبارة اوصافه ، ونازلنا مدينة جيان وشهرتها في المعمور ، تغنى عن بشط ما لها من الامور ، ففتحها الله عنوة وجعل سببها للاسترقاق ، ومقاتلتها للبيض الرقاق[3] ، وغزونا بعده مدينة أبّدة فكانت اسوة لها في التدمير ، وانعما المبير ، ثم نازلنا مدينة قرطبة وهي ام هذه البلاد الكافره ، ودار النعم الوافره ، فكدنا ان نستبيح حمى المنيع ، ونشتّ شملها الجميع ، ونحتفل بفتحها للدين الصنيع[4] لولا عايق امطار ، واجل مخصوص بمقدار ، ورحلنا عنها بعد انتهاك زلزل الطود ، ووعدناها بمشيئة الله[5] العود ، ونامل من الله انفاذ[6] البشرى بفتحها على بلاد الاسلام ، ومتاحفة[7] من بها من المولد[8] بالاخبار به والاعلام ، ثم فتحنا بعدها ثغورا مقفلة الابواب ، ومعاقل متعلقة بالسحاب ، كحصن روط وحصن الحوار وحصن قنبيل امن الاسلام جوارها ، وعمر بالحمة والمجاهدين اقطارها ، وخرج لنا ملك الروم في مشارطات اردناها ، وفرض لعز الاسلام ابتدرناها ، عن حصون اربعة طهرنا بيوت الله بها من دنس الاوثان وعوّضنا النواقيس بكلمة الايمان ، والحمد

1) En B فتحركت. 2) En C قبل. 3) En C es más extenso el recitado precedente relativo a Jaén que por cierto no menciona, y se limita a lo siguiente: الى مدينة كذا وشهرتها فى المعمور ، وشياع وصفها يغنى عن بسط ما لها من الامور ، ففتحها الله على ايدينا. 4) En B falta la última cláusula. 5) Falta en C la expresión que precede. 6) En B ايعاد. 7) En C والتحاف.) Faltan en B las dos palabras que preceden.

لله على مواهب الامتنان ، ومنه نسل المريد من الاحسان ، واقرب المداين بافتتاحها مدينة الجزيرة الخضراء وهي باب الاسلام التي دخل الفتح ، وعظم عليها بكلمة الله المن والمنح ، وقدرها الكبير، اعظم من أن يستوفي وصفه التعبير ، فانبسطت الامال ، وضفّت على الاسلام ملابس اليمن والاقبال ، وهذه المجملات تحتمل شرحا ، تسبح فيه الاقلام سبحا ، من اوصاف مغانم شذّت عن الحصر ، ومعاقب لنزول السكينة وهبوب النصر ، وما ظهر من جد المسلمين في افتتاح تلك المعاقل المنيفه ، ومقرعة الجموع الكثيفه ، وبركة الحرم في كل حال موجوده ، والوسائل باهله في القديم والحديث لا مخيبة ولا مردوده ، فهو الاصل ، والعهد الذي سهل منه هذا الفصل ، حتى بلغ التخوم القاصيه ، وقاد من استعصى بالناصيه ، وقد ظهر لنا ان وجهنا الى المدينة المقدّسة صلوات الله على من بها وسلامه نعرفه بهذه البركات الهامية من سماء عنايته ، .....[1])

«También compuse (lo siguiente) en la comunicación al jefe de Meca—Dios la honre.—Y marchó el embajador en ella de parte del sultán (Mohamed V)—Dios se apiade de él—juntamente con la misiva para el sepulcro del Profeta—Dios le bendiga y salve—haciendo saber todas las conquistas que Dios había concedido a los muslimes en España hacia este tiempo. Y esto tuvo lugar en el mes de Rebia 1.º del año 771 (Octubre de 1369)».

Y a esto... La guerra santa y la peregrinación son, en verdad, dos hermanas que maman de ubres análogas en la ruta y en el viaje; se separan en el campamento y se juntan en el esfuerzo de la lucha y se levantan como faro sostenido sobre elevada columna. Nuestra patria—y la alabanza sea para Dios—a este tiempo tiene como especial atributo la profesión de ese mérito y el cuidado de su total suficiencia terrestre y marítima, libre y salva de la ruina. Y esto es un linaje cuyas raíces se hallan entrelazadas, un pacto obligado de verdaderos resplandores y un parentesco al cual no aventaja ni supera otro parentesco. Nosotros os hacemos saber las circunstancias de esta región cuyas ramas se hallan

1) Siguen algunas otras frases gratulatorias y de despedida, con las cuales termina la carta

prendidas en ese tronco firme, con sus manos tendidas hacia esa morada que accede generosamente a la petición de la limosna. Y sabed que el Islam en esta región está con serpientes en canasto estrecho, en desarreglo sus asuntos y la *taifa* de la verdad es (en ella) escasa en número, aislada para recibir auxilios, salvo de parte de Dios, y con su día y su mañana siguiente sumergidos en la adversidad. Pues los albores brillan en las cimas de las montañas, la extensión de su vivienda es ilusoria, los gritos de auxilio son escuchados en las diferentes estaciones del tiempo, los enemigos están reunidos para recuperar lo que había cogido la conquista primera, la paciente resistencia se ha vestido ya sus finas camisas, la victoria pide con instancia sus caminos, los leones extirpan los restos de los mártires de la guerra santa y éstos corren a servirles de manjar, los niños en sus juegos ejercitan el uso de las armas y la destreza para la lucha es enseñada, como las tabletas en la instrucción de la lectura. Las orejas de los caballos se alzan al escuchar los gritos y las dispersiones de los extraviados en el sendero de Dios—que es alto—en manos de los vientos. A los minaretes responden las campanas que dan estallidos, y su lucha grande, opuesta y el número de soldados no llega al de los infieles aunque se dilate de diez en diez. Sin embargo, Dios poderoso y excelente, desligó en nuestro gobierno al asfixiado y al oprimido y abrió hacia la prosperidad al ávido y al hambriento, hizo que flotase extendida la sombra de la seguridad e inspiró—séale agradecida la inspiración y el buen acierto de la flecha dirigida.—Y la alabanza sea para Dios que conduce las concepciones de las inteligencias hacia el esfuerzo con el cual se junta el buen éxito; y hacia la lucha por la cual se abre camino libre al comercio. Sea alabado Quien clemente, prefiere para sí al que quiere y conduce hacia sí al que se arrepiente; Quien generoso inspira para recompensar, y afable ordena la petición para responder favorablemente.

Pusimos en campaña en este tiempo los cuerpos de tropas—sea con ellos—y la alabanza para Dios—el augurio feliz y presida su empeño, y les preste auxilio Aquel que tiene en su mano el negocio próximo y remoto de ellos.—Y conquistamos la ciudad de Priego divisoria entre las villas muslimes, que constituía un bocado atravesado en la garganta del pueblo del Islam.

Después cercamos la fortaleza de Iznájar, estribo de las algaras de los infieles y depósito abundante de armas; pues Dios quitó su fardo pesado, siendo perdonador de su caída.

Luego nos dirigimos a la ciudad de Utrera, capital princesa de los infieles, bosque de los leones vencedores y albergue de las gacelas del desierto. La tomamos por fuerza de armas, siendo entregada al fuego

la ciudadela y extirpados sus moradores por muerte o por cautiverio. Las villas se llenaron de cautivos de los cuales se contaron millares, y de botín que excedía a toda descripción.

Pusimos sitio a la ciudad de Jaén cuya fama en lo que toca a la cultura, permite que se prescinda de exponer largamente las cosas que posee. Dios nos otorgó su conquista por asalto y la sometió al cautiverio y a sus defensores puso bajo los afilados sables.

Después de esto, atacamos a la ciudad de Úbeda que sirvió de modelo de ruina y destrucción.

Luego sitiamos a la ciudad de Córdoba, metrópoli de estas ciudades infieles, mansión de abundantes beneficios, y a punto estábamos de destruir su defensa inexpugnable, de dispersar a su multitud congregada y de añadir la fiesta de su conquista a la religión bienhechora, si no lo hubieran impedido las lluvias y el plazo fijado especialmente en el Destino. Nos retiramos de ella, después que el combate hizo temblar a la elevada montaña y luego de prometerla nuestra vuelta, contando con la voluntad divina. Y esperamos de parte de Dios poder enviar albricias de su conquista a las ciudades del Islam y ofrecer generosamente el don precioso de esa noticia a los reyes que existan en aquellas.

Después de Córdoba abrimos las fronteras cuyas puertas estaban cerradas, y conquistamos castillos pegados a las nubes, como el castillo de Rute, el de Havar y el de Campil, cuya vecindad llevó la seguridad al Islam y cuyas comarcas fueron pobladas por los guerreros de la fe.

El rey de los cristianos en los pactos mutuos que teníamos aceptados de propia voluntad, y en las ocasiones favorables que habíamos aprovechado con diligencia para honor del Islam, nos cedió cuatro castillos en los cuales purificamos las casas de Dios de las profanaciones de los ídolos y sustituímos las campanas por la palabra de la verdad. Sea Dios alabado por las generosas donaciones de su gracia y pidámosle el acrecentamiento de su beneficencia.

Y la más reciente de las ciudades conquistadas ha sido la ciudad de Algeciras, puerta del Islam por donde entró la conquista, y sobre la cual fueron grandes con la palabra de Dios, el favor y gracia divinos, cuyo gran poderío vino a ser mayor de lo que la imaginación podía representarse y más de lo que se podía esperar. Ella ha apretado fuertemente al cuerpo del Islam las vestiduras de la bendición y de la prosperidad. Esas bellas acciones permitirían que se hiciese un comentario en el cual las plumas se extendiesen largamente acerca de las descripciones de las presas cogidas imposibles de fijar, de las dificultades para que descendiesen la tranquilidad y los soplos de la victoria, y de lo que se hizo patente, de esfuerzo de los muslimes en la conquista de esos castillos

dominantes, de las tremendas luchas de las tropas, de la bendición del firme propósito, por Dios revelada en toda circunstancia, y de las influencias acreditadas a su gente en el tiempo antiguo y en el actual, no ocultas ni rechazadas. El es el principio y la base por el cual es facilitada esa consecuencia, hasta que llegue a los límites remotos y gobierne a quien se oponga como rebelde en la parte restante.

Nos ha parecido acertado enviar a la Ciudad Santa las bendiciones y salutaciones de Dios para quien haya en ella, notificándole estas gracias que como lluvia fina descienden de los cielos de su providencia...

§

Varias cartas de Mohamed V al sultán de Fez Abufáres Abdelaziz, hijo del sultán Abulhásan, sobre el mismo asunto

Con anterioridad a la carta que precede, dirigida al Jefe de la Meca, escribió Mohamed V de Granada otras sucesivas al sultán de Fez, que a la sazón era Abufáres Abdelaziz, hijo del sultán Abulhásan y hermano de Abuinan, comunicándole sus conquistas referidas, de seguida que las obtenía. La que va a continuación comprende la jornada de la conquista de Iznájar, como realizada en el tiempo de la toma de Priego y como una necesidad estratégica para robustecer la dominación del Islam en la región adyacente de aquella fortaleza. He aquí sus fragmentos útiles para nuestra historia:

وصدر عني في اوّل الحركة الجهادية لهذا العهد وقد تحرّك السلطان اعزّه الله الى حصن آشر القريب الجوار لارض النصرى باقل حضرته وما يجاورها من الامكنة القريبة وكان املاء هذا الكتاب قبل اعمال الحركة بيوم فلم تبدّل منه لفظة واحدة الهنم من الله عزّ وجلّ وافق ما وقع في ذلك الفتح الغريب وتحدث ناقلا عن السلطان بدار ملكه على عادتي فكتبه عنه كاتب انشائه معربا بذلك صاحب المغرب[1].

1) Cód. 1825 (B) fol. 36 y sigs. y 306 (C) fol. 103 v.

.....[1]) فذا كتبناه اليكم..... من منونا السعيد على المسلمين بظاهر حصن آشر .....وقد كنّا عرفناكم بما انعم الله به على المسلمين من فتح برعه واتصال سببهم من اخوانهم من بعد الالبتات والانقطاع ، .....[2]) جرثومة المسلمين من تلك الاحواز المسلمة والاصقاع ، فاصبح الشمل جميعا ، والمنثور منظوما والتسبيل قصدا والفرقة جمعا ، .....[3]) ثم اننا رايذا ان الاسلام لا يقر به قرار مع كون حصن آشر ركابا لعدده ، وسلما لكيده ، ودربا الى غارات الكافرين ، وفرضة الى مسارب اعداء الدين ، الى لا تضبط ما بينه وبين الحدود الاسلامية الرتب ولا تغني المسلحة ولا يجدي التحذر.....[4]) فاهمّنا شانه ، وحملنا الرقاد بثّه ، ونغّص علينا العيش شجاه ، واستخرنا الله في قصده ، وسالناه الاعانة على فتحه ، وتيسير صعبه ، فخلق الله سبحانه عندنا النهود ضربة لازب من غير ان نريح الجيش ولا نعيد الراي واشعنا للحين بغير الجهاد ولم نستدع لمادبة هذا الفتح الّا الاونياء من اهل وادي اش وسدها ، واقليم الحضرة وما اتصل بحوزها ، وخيّمنا من الغد بظاهرها في عفو من الاحشاد ونعاوة من الرجل وخف الّا من آلات الحرب حرصا على كتمان القصد واستصحبنا اعجالا تحمل.....[4]) السهم وآلات الهدم وماعون النقب من.....[4]) والستاير الخشبية والنفوط والترس والدرق الى الحصاصيد والسلاليم والقت الحضرة بافلاذها فلم يتخلف عنها محتلم مجن فوقه وبرزوا في رجل الدبا كثرة زادهم الله نماء وكثرة وصبحنا ثيوم الثلاثاء فجر اولى مظنات ليلة للقدر من هذا الشهر المبارك فصدّت اسماع من به طبول الجهاد التي قدم بها العهد وانتشرت حواليه رايات الصبر التي راف منها الجبين ورف عليها النعر ودارت بها المقاتلة المسلمة التي لا يخامرها الرعب ولا يداخلها الذعر وهو مصام منيع ومعقل شهير وبلاء مبين وصرف اليه الكفر لما ملكه عزمه ، واغرى به همه ، فسدّ واصلح خلله

1) Suprimo las partes de la carta que no ofrecen interés. 2) En B espacio vacío como de una palabra; en C falta todo el pasaje de referencia. 3) Paso por alto frases sin interés. 4) Espacio vacío como de una palabra.

ونظر الى عوراته فاوسعها تحطّما حتى قطع الاطماع وبتر الامال وكان به عدد جمّ من رماة الشعراء ومساعير الحرب واولى الشهرة من السلاح والعدة ، كل محسب في الحاجة ومفن في الشدة ، الا ان الله لا تغالب قدرته ، ولا يرد عن القوم الكافرين باسه ، فتعلق به المسلمون يخوضون غمار الشهادة ويتزاحمون على مراتب المنية ، ويسمحون في مبايعة الله بالنفوس الزكية ، فاقتحمت المايدة المتصلة به ولجا الى الحصن من كان به من الحامية ، فخلفهم المسلمون وهي اولى علامات الظهور ، ومبدا الفتح المسطور ، وقاتلوا ذلك العقاب المروم في جهاته واوسعوا اسواره المنيعة نقبا ، وحفايره العميقة ردما ، وصبروا صبرا ، لا بلج فكرا ، ولا يعطى مقادة التصوّر وهما ، كانما هو اثار من اثار عناية الله قوم بها للدين عهدا ، واجمل الله بها للاسلام صنعا ، ورأى الاعداء من قدرة الله ما راع اقيدتهم ، واذعل عقولهم ، وفشت فيهم الجراح وعجزت منهم الحيل فاشاروا الى طلب الامان بعد ان بالغوا في الاعذار ، وبلغوا ابعد مبالغ الصبر ، فقوبلوا باتباعات القصد ، وتتم الرغبة واذلوا عن الابلق الفرد ، لا بل عن مركز النجم ، وعلت فوق ابراجه رايات الاسلام ، وارتفعت بكلمة التوحيد واخذ بيوت عباد الله التطهير ، وتاول بمثاله التشمير ، وانزل ناقوسه انزال التهوين وجلت به على المسلمين عوارف الفتح وللحين شرعنا في سدّ ما ثلم من اسواره وهتم من شرفاته ، وبقر من بطون مسافته ، فعملنا ببدانا اقتداء بنبينا صلوات الله وسلامه عليه نقلا للالة وعملا بالمواعين نسله جل وعلا ان يجعل ذلك خالصا لوجهه وذريعة الى قربه وان يجعل غباره لنا امانا من دخان ناره ، وان يسهمكم في اجره ، فلو ابصرتم جد هذه الامة الغريبة تغلبتكم دموع الرقة واستفزّ بكم بواعث الحمية وغارت يد الاسلام من هذا المعقل العزيز عليه بقرار القلوب وقرّة العيون والعدو في اثناء هذا حسبما يتعرفه من النسن اسراه متمهد باشبيلية بقرر قواعد ما صار اليه ، ويمهّد جوانب ما انثال من الدنيا عليه ، وقد بث تلك الامّة المتلاحقة من الشرف بين بلاده ، وحد لهم ارتقاب امره ، والتماح اشارته ولا شك في ان هذه الفروح يصل وخرها الى قلبه ، ويثير نكاياتها من عرمه ، وبالله نذرا في

فحره ، وبحروب الله نستعين على حربه ، وبربنا الله نستظهر على ربه المنصوب ، والاله المنحوت ، وقد سبقناه بانتهاز الفرصة وعاجلناه في سبيل الله.....[1]) طيرنا لكم هذا الخبر لتسرّوا انتم ومن لنظركم من المسلمين ونحن نرى فيما يكون عليه العمل من قصد غيره ومصادمة سواه ونشرع في اختيار من يعمّره من الفرسان الحماة ، وحذّاق الرماة ، ونستكثر به من الاقوات والله المستعان وانتم عمدتنا في الله الذي نبشره عند اجتلاء السرور ، ونستصرخه عند اشتداد الامور ، وان يسّر الله في انجاز ما به وعدتم من اتباعة التحركة الى سبتة لتعيين حصّة تبتغون بها وجه الله وتتحدون الاسلام فاثرها كبير ، وسماعها شهير ، وهي الاخبار تاخذها الرياحة اذا تنوقلت ، ويبعدها الارجاف اذا سمعت ، والكلمة واحدة ، وكل معروف صدقة ، وظنون الاسلام فيكم جميلة ، والله يجملكم ، على ما يرشدكم ويسعدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته.

«También compuse respecto del comienzo de la campaña santa realizada hacia este tiempo; pues el sultán—hónrelo Dios—había salido de expedición contra el castillo de Iznájar contiguo a la tierra de los cristianos, con la gente de su capital y de los términos vecinos a ella. Y fué el dictado de esta carta un día antes de ser realizada la expedición, sin que fuese cambiada en ella una sola frase. La inspiración de Dios, poderoso y grande, concordó lo que tuvo lugar en esa conquista extraordinaria. Quedé como vicario del sultán en su corte, según mi costumbre, y redactó la carta de orden de aquel, un secretario de su oficina, notificando el suceso al señor del Mogreb.»

«Nos os escribimos desde nuestra estancia afortunada al frente de los muslimes en el exterior de la fortaleza de Iznájar.....[1]) Y ya os tenemos notificado el favor que Dios había concedido a los muslimes en la conquista de Priego y la reunión de sus afines con sus hermanos, después de haber permanecido cortados y sin comunicación entre sí, y vino a ser una raíz para los muslimes de aquellos alfoces y términos sometidos al Islam, y la separación amaneció hecha una reunión, lo disperso se hizo ordenado, la apertura del sendero de Dios fué un propósito alcanzado, y la división una suma..... Luego juzgamos que el Islam no podría establecerse fijamente en aquella ciudad siendo el

1) Paso por alto algunas frases sin interés histórico.

castillo de Iznájar un estribo para los enemigos, un punto de apoyo para sus asechanzas, un desfiladero para las algaras de los infieles y un cauce para las corrientes de los enemigos de la religión, si no se fortificaba bien la parte comprendida entre aquél y las fronteras muslimes y no se enriquecían los puntos de guarnición y se procuraba la vigilancia..... Nos preocupó gravemente su asunto, nos quitó el sueño su estado y nos indigestó la comida su bocado difícil. Mas pedimos auxilio a Dios contra él e imploramos su ayuda para conquistarlo y para vencer con éxito su dificultad. Y Dios hizo que renaciese en nosotros el deseo de caer sobre el enemigo imprescindiblemente, sin que diésemos descanso al ejército, ni nos apartásemos del juicio formado. Nos inflamamos al punto en el fuego de la guerra santa y no llamamos al festín de esta conquista más que a los magnates de la gente de Guadix y sus colinas y a los de la región de la capital y de las vecindades de su alfoz.

Acampamos de madrugada al exterior de aquella fortaleza sin cuidarnos de congregar las tropas y la mejor parte de los peones y cuerpos ligeros, sino únicamente de las máquinas de la guerra, procurando con esto ocultar el propósito. Y nos apresuramos en transportar..... de las flechas, los instrumentos de destruir, lo que podía ser útil para abrir brecha....., los parapetos de madera, las naftas o betunes inflamatorios, los escudos y defensas de los guadañadores y las escalas. La capital echó todos sus tesoros guardados y de ella no quedó atrás un solo púber, sin que echase sobre sí su armadura, y avanzaron como un gran enjambre de langostas, a las cuales acrecentó y multiplicó Dios.

Vinimos a (Iznájar) al tercero día, hacia el primer tiempo de la aurora, del referido mes bendito. Entonces retumbaron en los oídos de los que estaban en el castillo, los tambores de la guerra santa a los cuales el juramento había hecho avanzar, fueron extendidos los pliegues de las banderas de la resistencia, cuyo frente resplandecía y sobre las cuales brillaba el poder, y las rodearon los combatientes muslimes en los que no penetraba el miedo, ni en su interior la cobardía.

Iznájar es un poste inaccesible, una fortaleza notable y un tormento evidente. El infiel se dirigió a ella, cuando su firme resolución le dió su dominio y su preocupación el deseo de ocuparla, y cerró y reparó sus brechas, atendió a sus partes débiles, ampliando sus fortificaciones, hasta el extremo de cortar e interceptar todas las ambiciones y deseos (respecto de la posesión de la fortaleza). Había en ella un crecido número de tiradores de teas y tizones encendidos, y no hay que decir del número de sus armas y de aprestos. Toda ella estaba ajustada a la necesidad y preparada para la violencia, a no contar con Dios cuyo poder es invencible y cuya bravura son incapaces de rechazar todas las multi-

tudes infieles. La embistieron los muslimes precipitándose entre las olas del martirio, corriendo a porfía hacia las líneas de la muerte y entregando generosamente las almas puras en medio de la proclamación de Dios. Entonces fué ganada la meseta contigua a la fortaleza y los defensores que había en ella corrieron a resguardarse en el interior de aquélla perseguidos por los muslimes. Esta fué la primera señal del triunfo y el comienzo de la victoria prescripta.

Los muslimes atacaron aquella altura deseada en los flancos de la fortaleza, abrieron extensas brechas en sus muros, obstruyeron anchas partes de sus fosos profundos y resistieron con un valor de que no pueden dar brillante idea el pensamiento, ni la imaginación. Como que solamente ello es uno de los vestigios de la Providencia divina, con los cuales son cumplidas las promesas en favor de la religión muslim y por medio de ellos Dios muestra su gracia en bien del Islam.

Consideraron los enemigos cuanto era el espanto que causaba en sus espíritus el poder de Dios y se confundieron sus inteligencias, se desincharon las heridas entre ellos, les flaquearon las fuerzas y convinieron en pedir la amnistía después de excusarse y de llegar en su resistencia hasta el mayor extremo. Fueron correspondidos en su propósito y se les cumplió el deseo, y descendieron en la forma más abigarrada, como de un campo de las estrellas. Sobre las torres de la fortaleza fueron enclavadas las banderas del Islam, fué ensalzada la palabra de la Unicidad, fueron purificadas las casas de los siervos y su posesión fué interpretada como modelo. Fueron echadas abajo las campanas de la fortaleza como cosas despreciables, y fueron mostrados a los muslimes los beneficios de la conquista. De seguida nos apresuramos a cerrar las brechas de sus muros, lo derruído de sus almenas y lo abierto en el interior de sus estancias. Practicamos la imitación de nuestro Profeta—Dios lo bendiga y salve—haciendo referencia de los medios útiles y cumpliendo las limosnas legales. Pedimos a Dios—grande y alto—que haga esto puro en su presencia y como medio de alcanzar la aproximación a El, que su polvo sea para nosotros preservativo de la ahumada de su pez y que a Vos escuche en su recompensa.

Si hubiéseis visto el esfuerzo de este pueblo peregrino, con seguridad se hubieran apoderado de Vos las lágrimas de la compasión y se os hubiesen excitado los impulsos de la defensa. La mano del Islam con la posesión de esa fortaleza tan dura para él, ha salvado la tranquilidad de los corazones y el consuelo de los ojos.....

El enemigo en este tiempo se halla fuerte en Sevilla, según es sabido por lengua de sus cautivos, a fin de establecer las bases y condiciones de la gente que se ha inclinado y acudido a él. Y ya se ha

dispersado aquella gente reunida de la parte oriental entre las ciudades de aquél y se les ha marcado que estén al cuidado de su orden y de su indicación. Y no hay duda en que estas heridas llegarán a picar en su corazón y los daños de ellas excitarán su entereza. A Dios informaremos acerca de la garganta de aquél y a los adictos de Dios pedimos auxilio contra sus parciales, con nuestro señor Dios triunfaremos sobre su señor erigido y contra su divinidad tallada. Ya le hemos ganado por la mano la ocasión y corremos presurosos contra él siguiendo con poder el sendero de Dios.

Volamos para haceros saber estas nuevas, a fin de que os regocijéis y con vos los muslimes que se hallan bajo vuestro cuidado. Entretanto, Nos estamos pensando en lo que haya de practicarse respecto de otro propósito o ataque y nos hallamos engolfados en escoger los jinetes y arqueros que han de guarnecer (la fortaleza conquistada, Iznájar) y en aumentar sus provisiones. Y Dios es aquél de quien se implora el socorro, y Vos sóis nuestro sostén en Dios a quien tributamos albricias, cuando se muestran las alegrías, y a quien suplicamos gritando, cuando aprietan las circunstancias infaustas. Sí, Dios hará que resulte prósperamente por una determinación especial, lo que prometéis de extender la expedición militar hasta Ceuta, para que hagáis permanente en ella la faz de Dios y único el Islam. La importancia de ella es grande y su fama pública. Ella sería de las nuevas que se acrecientan cuando son referidas sucesivamente de unos a otros, y de las que alejan los propósitos sediciosos, cuando son escuchadas. Y la palabra (de Dios) es única y todo bien divino es verdadero y los pensamientos del Islam todos están fijos en Vos. Y Dios os acordará un buen fin en todo aquello a que os dirija y encamine. Y la salutación noble sea sobre Vos y la misericordia de Dios y sus bendiciones.»

§

Mohamed V comunica al referido sultán de Fez su jornada contra Utrera y su alfoz, después de haber tomado y guarnecido la fortaleza de Iznájar

No aparece consignada en la carta precedente la fecha en que Mohamed V cobró la ciudad de Priego y el castillo de Iznájar. Mas por la fecha que se da en la que sigue sobre la jornada y asolamiento de Utrera en la primavera de 1367, se viene en conocimiento de que

aquellas conquistas hubieron de ser alcanzadas por el sultán de Granada muy poco antes de ese tiempo.

Esto mismo se deduce de las breves indicaciones que con referencia al año 1366 nos hace el susodicho López de Ayala en su *Crónica de D. Pedro I:* «Otrosí, dice, el Rey Mohamad de Granada, luego que sopo que el Rey D. Enrique avía cobrado los Reynos de Castilla e de Leon, e toda el Andalucía, ovo muy grand temor dél, e firmó con él sus treguas; como quier que antes que esto fuese, ovo alguna guerra entre los Christianos e los Moros, e perdiose una villa que los Christianos tenían, que decian Iznaxar, que el Rey D. Pedro ganara quando oviera la guerra con el Rey Bermejo» (el rival usurpador del reino de Mohamed V).

Sabido es con abundancia de detalles, el estado desesperado a que se vió reducido en el citado año el rey D. Pedro, quien suplantado en Burgos, Toledo y Sevilla, su capital favorita, hubo de abandonar las costas de España marchando a Bayona, para tratar e implorar del Rey de Inglaterra y de su hijo el Príncipe de Gales auxilios poderosos con los cuales y con la ayuda del sultán granadino, pudiese recuperar su trono que temía perder para siempre.

Con estos antecedentes es fácil explicarse que el enemigo a que alude Mohamed V en su carta, que acabo de exponer, como existente en tal tiempo en Sevilla, ocupado en organizar las fuerzas de sus adictos, no puede ser otro que el bastardo D. Enrique, quien por entonces ocupaba efectivamente aquella capital, abandonada por don Pedro al marchar hacía Inglaterra obligado por su apurada situación y ante la imposibilidad de sostenerse en aquélla.

Ninguna sorpresa puede ofrecernos, conocidas como son las fluctuaciones del poder soberano en los reinos medioevales de la Península, que Mohamed V pactase con D. Enrique los mismos tratos de tregua de paz que tuviese antes con Castilla, como afirma López de Ayala, al considerar como destronado definitivamente a su predilecto y favorecedor D. Pedro, y que por tal motivo se volviese con su hueste a Granada, después de haber llevado la desolación y el incendio a Utrera y sus tierras circunvecinas, sacando de ellas cuantioso botín y largas filas de cautivos. Mas esa tregua de Mohamed V con D. Enrique fué muy pasajera, como es sabido y quedará confirmado más adelante.

He aquí la parte interesante de la carta de Mohamed V al de Fez sobre la jornada de Utrera:

ولما وصل السلطان أيده الله من غزاة أطريرة بعد استفتاح حصن اشر المتقدم الذكر صدر عنى في التعريف بذلك لسلطان المغرب .·. وهو من الكلام

المرسل الذى قلما الوى على سجح ولا وقف على قافية تشفوف هذا الغرض في هذه الاقطار[1]).

.....والى هذا فاننا كنّا قد عرفناهم بما اتفق عليه الراي من مظاهرة ملك قشتالة على اخيه مجليه على مدرته ، والمستحوذ على مملكته ، تقريبا يومل به دوام الفتنه ، واشتعال نار الاحنه ، وتميزا للمسلمين بخطة العافية وتمريرا في ميدان حسن المكافاه ، واقامة بحسن المجازاه ، وتمهيدا لرعى قديم الجوار وبراه عن التقصير في استصراخ كريم قوم او معرض حسن سعى .·. فخاطبنا بلاد الفرنتيره تضمن لاقلها اتصال السلم عند صدف الفتنة واستدراك الفلّة .....[2]) وكنّا قبل هذه النبوه بسلطان قشتالة المذكور قد عملنا مضضا طويلا الجوانح على سلّه واعربنا الجوع ببثّه في الحادثة على ما يناهز الالف من اسرى المسلمين المقرّنين في الاصفاد بدار الصنعة من اشبيلية الاذمار الحماة فلول الوقايع واسار الحتوف وحيات الاودية الضمينة بهم يد الكفر من نحو سنين عدّة اذ كان المجمجع به بين طراده والجهر بخلعانه وانتهاب قصره قد اطلقهم نكاية لقومه.....[3]) وقد تاذن الله سبحانه بكر ظهور الشهادة على ما رسب من اوزارهم وختم به صحايف بوساهم وشقفهم واعترضهم اهل اطربرة من بقيات هذه الامم الممتنعة اشبيلية وعلى نصف بريد من بيضتها واهلها اشهر اغلب الكفر عن ناب شره واسطاهم بنفس مومنة واخفرهم لذمة واسواهم معارضة لملتمس تجرا وتحفة او مضايقة بسفير رسالة يرومهم التحرّج من انصرافهم بجلال تلك الاسلحة وجعلوا.....[4]) في اسلامها اليهم شرطا وبذلوا لهم على ذلك عهدا فلما صفر منه ايديهم تناولوهم بالابادة.....[5]) فلما قامت هذه السوق ، ولمعت في سماء الفتنة القشتالية البروق ، ثار لدينا ونم بكن

1) Cód. 1825 (B) fol. 37 v. y sigs. y 306 (C) fol. 106, cuyas omisiones y extensas lagunas le quitan todo valor en este caso. Suprimo las partes de la carta que no ofrecen interés histórico. 2) Siguen dos o tres frases truncadas, por haberse borrado o dejado sin escribir algunas palabras. 3) Sigue una expresión ininteligible por falta de algunas palabras. 4) Espacio vacío como de una palabra en B; falta todo el pasaje anterior en C. 5) Siguen frases oscuras con lagunas en el texto.

خافيا كامن الحميّة لله على بعد المرمى ، وخطر المسرى ، كتبه الله لنا من مسعى ، يوم تدان النفوس وتجزى ، فتوفرنا على قصدهم ليصمت الهلع وتقل الاوهام ، توفرا لم تمطل به الايام ، ولا فسحنا لتدبير الاماد وكان الله عز وجل اطلع قلوب المسلمين من ذلك على ما خبيناه[1]) ، وكشف لهم عمّا نويناه ، فخفوا كثر الله جمعهم خفوفا لم يذمره وعيد ونفروا عن غير موعج مهيب في رجل الدنيا كثره واسود الشرى نجدة ويعاسيب للكور سلاطة وحمية وخرجنا نجد السير والنجح قايد والتوفيق مواكب والسعد العرض كافل والقصد المبرور ضامن واحتللنا رقدة حرسها الله واثقين بقوّة الله وحوله متمسكين بسببه القوي في الامر كله....[2]) ثم انتقلنا بالمحلات المجتمعات ضفّة وادي لكه محلة الفتح الاول....[2]) ومنها صبحنا اوليل الكافرين فساء وتشامت وجوههم ، واحاط بهم سوء كسبهم ، وحاق بهم وبال امرهم ، فعالوا عن الربض ....[1]) ولما كاثرهم اولياء الله يعلو بالكلمتين نداؤهم ويكاثروا ازهار البطحاء المختلفة الالوان راياتهم لجا سرعان انتشر بذلل السهل العريض من الامم الكافره ، والنسم الغادره ، الى مسور الحصن وقد كانوا في هذه المدد القريبة ارسعوه تحصينا وناصحوا عوراتها رمّا وتسديدا وتخلفوا المنازل مالية بالنعم والاقوات ، والامتعة والالات ، فخافهم المسلمون عليها انتهابا لكثيرها ، واستلابا لخطيرها ، حتى لم تبق يد الا مليت ، ولا نعمة الّا سبيت ، وتحصنوا بالقصبة والسيوف تتخطفهم ، والرماح تنوشهم ، والسهام تبعجهم ، بعد موافقات صعبة وحملات مرة....[2]) ثم علطوا من تحصّن بالقصبة كووس القتال ، وارسلوا عليهم خواصب النبال ، وتعلقوا باسوارهم يقرعون الثنايا ، ويطلعون عليهم وجوه المنايا ، واستجدّت الات النقب وظهرت الى ذلل المعتصم المحجور من ذمة الله حجارة الرجز واسفوا الله فانتقم منهم وعتوا على عباد الله المضطهدين فجعل لاوليائه واوليائهم نصيرا لهم فصاروا الشدة عامّة يوم النجوم عليهم وهو اليوم الذي سفكوا فيه دماء

1) Espacio vacío en B. 2) Suprimo dos o tres frases retóricas sin interés.

اسرى المسلمين ، وعتوا على رب العالمين ، ليلة مستهل الشهر الكريم متقبل الاعمال ومنزل القران وخبهم اليل فاضرمت النيران فيما استبحر من ديارهم المنخرقة الاوضاع الغاصّة بالالات فغشيتهم السماء بدخان مبين وعذاب اليم وضعطهم صعاب من عذاب شديد ولمنتصف اليوم بعده القوا بالاذعان الى حكم المسلمين فانزلوا عامة اليل بعد ان علت بنود الاسلام في ابراجهم الحصينة وقصبهم المبتناة لهذا العهد المشيدة ومن الغد عمت ردفاء سباياهم الظهور والاكفال ، وتجاذبت مقاتلتهم وجلداوهم الجذل والحبال ، وصلصلت الى امتطاء نبهاتهم الاصفاد والاكبال ، وقد اضرمت النار في بيوتهم التي تاذن الله بخرابها فعادت قاعا لا يعم ونيابا لا يسكن نجدها ولا يتدبّر.....[1]) فاصمت السن نواقيسه المصطحبة ومزقت اشلاء تماثيله المتبرجة وسفكت دماء جمهم فوق دماء من قتلوه ، وجزوا جزاء الضعف بما فعلوه ، .....[1]) وقفل الجيش يجنب نصرا لاكفاله وصنعا لا عهد يمثله وقد رفعت الوتية الخافقة الوتية الفخر.....[2]) وقد طالت محل الصيحة ومتنزل النقمة ومصرع الفية الكافرة الباغية افواج من عصايب الطير سراعى الجفلى وتتنادب للوليمة العظمى ولحقت عند الدخان باعنان السماء ونادت السنة الحمية في تلك العرصات بالثارات الاسرى واستباحت سيوف الله من النسم الافا عده ، ومن الحماة اولى باس وشده ، اعيا حديثها النقل فايتمنت عليه النار ، واعجزت طعمتها الظهر يوكل بها لانتساف والتبار ، والصقت جدراتها بوجه الثرى ، واهلك ما قرب من زرعها وناى ، والخبر لا ينوب عنه كل المناب عن المراى ، كذا اوزع الله شكر النعمى ، وكتب للاسلام حسن العقبى ، وظهر المسلمون من البقر على الاف ملات السروح وغصت ببراذنها ومراقدها الحزون والسهول وامّا سايمة الغنم فعاثوا منها فيما لا يكتب ولا يحصى ولا يعد وبلا المسلمون بشفاء الصدور وسرور القلوب وقرة العيون.....[3]) ولما عدنا الى حضرتنا بادرنا تعريفكم بهذا الصنع.....[3]) وكتب في كذا من رمضن المعظم من عام ثمانية وستين وسبعماية.

1) Suprimo algunas frases retóricas sin interés. 2) Espacio vacío en B.
3) Siguen algunas frases sin interés histórico y con lagunas en el texto.

«Y cuando vino el Sultán—Dios le ayude—de la jornada de Utrera, después de haber conquistado a Iznájar, anteriormente mencionada, compuse para comunicarlo al sultán del Mogreb, este escrito que es de aquellos de rima libre, los que rara vez atienden y se entretienen en guardar la rima, dada la preeminencia de tal gusto en estas regiones.»

...Y a esto ya os tenemos comunicado lo que fué convenido respecto de la demanda de auxilios hecha por el rey de Castilla contra su hermano, su competidor y rival en el reino en forma tal, que es de esperar por ello la duración de la lucha interior y la inflamación del odio, determinándose para los muslimes el negocio de sanear su situación, de alcanzar en el hipódromo una buena recompensa y retribución, de mejorar el estado político de la antigua vecindad y de curarla de su imposibilidad de pedir auxilio a un noble pueblo o mostrar el bello esfuerzo.

Escribimos a las villas de la frontera garantizando a sus gentes la continuación de las treguas de paz en tanto que durase la guerra civil, y la situación fué estrecha.

Mas sucedía que antes de aquellas advertencias al rey de Castilla mencionado, veníamos teniendo un sufrimiento que nos angustiaba, y sentíamos hambre de divulgar su nueva, en lo que tocaba a que se aprovechase la ocasión del millar de cautivos muslimes retenidos en las ligaduras en el arsenal de Sevilla, los bravos defensores, restos de los ejércitos derrotados en las batallas, cautivos del destino y serpientes de los valles a los cuales daba caución la potestad de los infieles ha muchos años. Pues cuando llegó aquél a verse entre sus espinas, la noticia de su deposición y el saqueo de su alcázar, los puso en libertad para servir de tormento a su pueblo.

Mas Dios concedió—sea alabado—que comenzase la purificación del testimonio respecto de las cargas que sobre aquéllos había lanzado, de las penas que les había decretado. Los rechazó e interceptó su avance la gente de Utrera, que es de los principales de estos pueblos, que hacen inexpugnable a Sevilla, de cuyo casco dista media jornada de posta. Y los de Utrera que son los más perros de los infieles, de diente canino voraz, los más intrépidos en los asaltos de media noche, los más taimados para los clientes y los más perversos para contrariar al que busca el comercio u objetos preciosos y para tratar con dureza a los portadores del correo, deseaban que aquéllos se abstuviesen de partir con la importancia de aquellas armas y comenzaron a tratar que les fuesen entregadas con cierta condición y ofrecieron a aquéllos sobre este particular un pacto. Mas cuando éste fué ajustado, les brindaron la perdición.

Al ser restablecido este zoco y al brillar los relámpagos en los cielos

de la lucha interior de Castilla, se alzó en nuestro favor, sin ocultarse, lo recóndito del fervor para con Dios, a pesar de la distancia del propósito y del riesgo del camino—Dios nos lo inscriba como esfuerzo meritorio en el día en que sean juzgadas y recompensadas las almas.—Atendimos al deseo de aquéllos, a fin de acallar las inquietudes y aminorar los temores, con tal diligencia que no la dilataban los días, ni tampoco alargamos los límites para emprender la acción. Y ocurrió que Dios—poderoso y grande—infundió en los corazones de los muslimes respecto de esto, todo lo que nosotros ocultábamos, y les reveló cuanto intentábamos, y acudieron las multitudes de Dios en totalidad con tal presteza, que no la hubiesen excitado más las amenazas, y corrieron sin inquietud alguna que les atemorizase, como un grandioso bando de langostas, como leones impetuosos en el ataque y como reinas de abejas hacia los nidos, con diligencia y fervor.

Salimos de camino llevando el buen éxito como guía, la ayuda de Dios como cortejo, el buen augurio como fiador y el propósito puro como garantía, y nos detuvimos en Ronda—guárdela Dios—confiados en la fuerza y poder de Dios, apoyados sobre su causa omnipotente en todo negocio. Luego nos trasladamos con los campamentos reunidos a orillas del Guadilecah, estación de la conquista primera... Vinimos de madrugada a aquellos infieles y tomaron mal aspecto sus caras, les rodearon la maldad de su manera de vivir y los malos efectos de su negocio y se retiraron de los arrabales.

Cuando rivalizaron en número con aquellos los amigos de Dios, cuyos gritos recitaban las palabras divinas y cuyas banderas igualaban en número a las flores de varios colores del valle, se acogieron presurosos todos cuantos de los pueblos infieles y hombres pérfidos se hallaban diseminados en aquella planicie extensa, al murado castillo, cuyas fortificaciones habían robustecido con esos refuerzos inmediatos y cuyas brechas tenían cerradas y restauradas. Y abandonaron las viviendas llenas de animales, de víveres, utensilios e instrumentos. Mas los muslimes les hicieron temer por aquéllas, entregándolas por completo al saqueo y pillaje de tal suerte que no quedó mano alguna que no se llenase, ni animal que no fuese cogido. Se hicieron fuertes en la alcazaba, mas las espadas les arrebataban, las lanzas les traspasaban y les herían las flechas después de duros combates y cargas vigorosas.

Después brindaron los muslimes a los que se acogieran a la alcazaba con las copas del combate y les enviaron nubes de flechas y se colgaron a sus muros rechinando los dientes y mostrándoles las fases de la muerte. Las máquinas de batir redoblaron su acción para abrir brecha. Contra aquellos rebeldes a la protección de Dios reunidos aparecieron

las piedras del furor. Irritaron a Dios; mas se vengó de ellos. Se presentaron altivos contra los siervos de Dios ocultos a las miradas y Aquél se hizo auxiliar de sus amigos y de los amigos de éstos, los cuales resistieron con gran fortaleza en el dia de la aparición contra aquéllos, que fué el mismo en que habían derramado la sangre de los cautivos muslimes mostrándose fieros contra el Señor de los mundos, al comienzo de la noche del mes honrado en que fueron aceptadas las acciones y descendió el Alcorán. Engañó a aquéllos la noche; las llamas de todo lo que abarcaban sus viviendas incendiadas, iluminó los puestos estrechados por las máquinas de batir. Los cielos les afligieron con la niebla y con tormento doloroso, les oprimió la estrechez de un fuerte castigo y al mediar el día después de aquella noche, ofrecieron someterse a los muslimes. Descendieron durante toda la noche después que fueron alzados los pendones del Islam en sus fuertes torres y en sus alcazabas recientemente fortificadas a este tiempo. A la mañana siguiente fué general el séquito de sus cautivos que marchaban tras de las grupas y espaldas, tirando de ellos sus combatientes, y los fuertes de ellos el tronco y la cuerda, y sobre sus nobles resonaban los grilletes y las cadenas.

Entonces volvió (la ciudad) a ser un terreno inculto y un desierto imposible de habitar. Se callaron las lenguas de sus campanas de reunión y fueron dispersados los restos de sus estatuas. Fué derramada la sangre de la multitud de ellos sobre la sangre que habían derramado, y fueron retribuídos doblemente por lo que habían hecho.

Y tornó el ejército llevando a sus espaldas la victoria y el favor divinos, sin que hubiese existido tiempo semejante a éste, y ya se habían alzado los estandartes flotando, como estandartes de la gloria. Y se habían extendido el campo del castigo, el descenso de la venganza, y el lugar de caer por tierra la multitud infiel opresora, como bandas numerosas de pájaros que se apresuran para tomar la fuga y se excitan uno a otro hacia el gran festín y, al tiempo de la ahumada, se acogen a las cimas de los cielos. Las lenguas de la cólera gritaron en aquellos recintos las venganzas de los cautivos, las espadas de Dios hicieron presa en millares de hombres y de defensores bravos e impetuosos, cuyo recitado no es posible hacer. Confiaron a Aquél el fuego, faltáronles los víveres en los cuales pusieron su esperanza la destrucción y la ruina y se pegaron sus escombros con la faz de la tierra humedecida. Pereció y se alejó toda su descendencia circunvecina de tal suerte, que no es posible que la información sustituya por completo a la visión de este particular—quiera Dios excitar la acción de gracias por sus beneficios y conceda al Islam un feliz término.—Y los muslimes se apoderaron de

millares de cabezas de ganado vacuno que llenaron las praderas y con sus piaras y zahurdas invadían por completo los montes y llanos. En cuanto al botín de bestias, las cobraron los muslimes en cantidad que no se puede escribir, ni enumerar, ni referir, y experimentaron la curación de los pechos, la alegría de los corazones y el consuelo de los ojos.

Luego que hemos vuelto a nuestra capital, corremos a informaros de este favor divino. Fué escrita a tantos del mes venerando Ramadan del año 768 (Mayo de 1366).»

§

El visir Abenaljatib, como vicario del sultán ausente en la campaña contra los cristianos, comunica al pueblo de Granada la toma de Utrera

ووصلني كتاب السلطان رضى الله عنه يعرّف بفتح اطريرة واستيلائه عليها عنوة وذلل بخط يده فعرفت من اهل حضرته الذين اعجلهم اسراع الحركة عن اللحاق به[1].

ايّها الناس ضاعف الله بمزيد النعم سروركم ، وتكفل بلطفه الخفى في هذا القطر القريب اموركم ، ابشركم بما كتب به سلطانكم السعيد عليكم ، المتزايدة بيمن الله وسعادته نعم الله عليكم ، امتع الله الاسلام ببقائه ، وأيّده على اعدائه ، ونصره في ارضه بملائكة سمائه ، وان الله فتح له الفتح المبين ، واعز بحركة جهاده الدين ، وبيض وجوه المومنين ، واظفره اطريرة البلد الذي فجع المسلمين باسراهم فجيعة تثير الحميه ، وتحرك النفوس الابيه ، فانتقم الله منهم على يده ، وبلغه من استيصالهم غاية مقصده ، فصدق من الله لاوليائه على اعدائه الوعد والوعيد ، وحكم بابادتهم المبدى المعيد ، وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد ، وتحصل من سبيهم بعد ما رويت السيوف بدمائهم الوف عديده ، لم يسمع

1) Cód. 1825 (B) fol. 166 v.

بمثلها في المدد المديده ولا في العهود البعيده ، ولم يصف من اخوانكم المسلمين عدد يذكر ولا رجل معتبر فتح هني ، وصنع سني ، ولطف خفي ، ووعد وفي ، فاستبشروا بفضل الله ونعمته ، وتلقوا عند الافتقار والانقطاع برحمته ، وقابلوا نعمه ، بالشكر بودكم ، واستنصروا في الدفاع عن دينكم نصركم ويؤيدكم ، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التي لم تعدموا من الله معها عيشا خصيبا ، ولا رايا مصيبا ، ولا نصرا عزيزا وفتحا قريبا ، وتضرعوا في بقائها ، وانصروا لوائها ، فمن لم يزل سميعا للدعاء مجيبا ، والله عز وجل يجعل البشائر القاشية فيكم عاده ، ولا يعدمكم ولا لاولى الامر توفيقا وسعاده ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته من مبلغ ذلك اليكم ابن الخطيب.

«Llegó a mi poder una carta del sultán, escrita de su propio puño, notificando la conquista de Utrera y haberse apoderado de ella por fuerza de armas. Entonces comuniqué a las fuerzas de su capital, a las que la precipitación con que se había realizado la jornada, había impedido unirse a ella (lo que sigue):

¡Oh gentes! Dios se ha servido redoblar vuestra alegría acrecentando sus mercedes, y tomar a su cargo vuestros destinos por virtud de su bondad misteriosa para esta región peregrina. Regocijáos por lo que os escribe vuestro sultán afortunado, de lo cual son sinónimas la prosperidad y la dicha concedida por Dios. El os favorece, permite al Islam que goce su permanencia, le ayuda contra sus enemigos y le auxilia en su tierra con los ángeles de sus cielos. Sí! Dios ha otorgado a vuestro sultán la victoria brillante, ha honrado a la religión con el ejército de su guerra santa, ha hecho que resplandezcan los rostros de los creyentes y a aquél ha apoderado de Utrera, la ciudad que maltrató a los muslimes en sus cautivos con tal crueldad que enciende la cólera y conmueve a los más fieros espíritus. Mas Dios ha tomado venganza en ellos por manos de aquél, y le ha hecho conseguir su más extremo aniquilamiento. Se ha confirmado de parte de Dios para sus amados la verdad de sus promesas y amenazas, su diligencia reiterada se ha cumplido una vez más en perdición de aquéllos, y así como el castigo de vuestro Señor, cuando reprimió a los poblados que eran injustos, así igualmente fuerte ha sido el castigo de aquél. De los habitantes de la ciudad, después de empaparse las espadas en la sangre de ellos, ha conseguido de cautivos

tantos miles que no se ha oído cosa semejante en largos años, ni en tiempos remotos, ni se recuerda tal número de vuestros hermanos muslimes, ni hombre que haya observado una victoria tan próspera, tan grande favor de Dios, tan misteriosa benevolencia y promesa tan cumplida. Regocijáos, pues, por la virtud y merced de Dios, confiad en su misericordia cuando os halléis en la necesidad y con los auxilios interceptados. Corresponded en el agradecimiento a sus beneficios para que os los acreciente en vuestro favor, ayudad con vuestro auxilio a impedir que sea rechazada vuestra religión, para que El os asista, mostráos contentos con esta dinastía bendita, con la cual, después de Dios, no os faltará sustento abundante, ni opinión justa, ni auxilio poderoso, ni victoria próxima, y pedid la permanencia de ella y el auxilio a su estandarte a Aquél que no cesa de escuchar ni de responder favorablemente a las peticiones. Y Dios que es poderoso y grande, hará que se repitan las gratas nuevas que se propagan rápidamente entre vosotros, y que el bienestar y la dicha no falte para vosotros, ni para vuestros príncipes.

De parte de quién os comunica esto, Abenaljatib.»

§

Mohamed V escribe desde Granada al mencionado sultán de Fez, Abdelaziz, hijo del sultán Abulhásan Alí, comunicándole la toma de Jaén por asalto, el saqueo e incendio de esta ciudad y el asolamiento de toda su tierra

En la citada «Crónica de D. Pedro I de Castilla», escrita por López de Ayala, se hace mención de la toma de Jaén por Mohamed V con referencia al comienzo del año 1368. Mas en la carta que sigue, en la cual comunica el sultán de Granada a su colega de Fez su terrible campaña contra Jaén y su alfoz, aparece por dos veces expresamente consignada la fecha de Septiembre a Octubre de 1367. Es indudable que en la referida crónica castellana se hallan englobados de un modo general los hechos de armas realizados por los moros de Granada con motivo de su participación en la lucha habida entre D. Pedro y sus

hermanos bastardos, y que a aquéllos no se da toda la importancia que realmente tuvieron. No es de creer que dentro del año 1368 pudiese el sultán de Granada efectuar las diferentes campañas contra Córdoba, Jaén, Ubeda y otras poblaciones importantes, llevando a todas sus tierras la devastación y la ruina y siendo evidente que en el intermedio de esas campañas se volvía a Granada con su ejército para rehacerlo y salir de nuevo, según se echa de ver en los documentos que aquí van. De estos se infiere más bien que las terribles algaras por tierras de Sevilla, Jaén, Ubeda y Córdoba acometidas por Mohamed V con apariencia de ayudar a D. Pedro y con el mayor deseo real de estragar y debilitar las tierras cristianas fronterizas con el reino de Granada, comenzaron en el año 1366 y siguieron en 1367 y 1368, coincidiendo precisamente con el tiempo en que el poder de D. Pedro sufrió los vaivenes más violentos, y fué más honda la perturbación de cosas en Castilla. Ayuda a pensar así el breve recitado de Abenjaldún sobre el particular (1).

En la carta que sigue puede leerse la campaña contra Jaén, detallada por Abenaljatib, a su modo eminentemente retórico, de orden de su señor Mohamed V.

وكانت النحركة الكبرى الى مدينة جيان احدى دار الملك وكرسي دار الامارة ولذات الشهرة واقتتحها المسلمون عنوة في اخر شهر الله المحرم من عام تسعة وستين وسبعماية فصدرت مخاطبة سلطان المغرب من املاى ما نصه[2]).

.....[3]) والى هذا اوزعنا الله وايّاكم شكره ....[4]) ان مدينة جيان بلقاء الشهرة وغاب البسالة ومنبت الشوكة وعقاب القواعد المقتصبة للمسلمين ، ومحتط طايفة العرب الشاميين من كورة قنسرين ، والام العديدة البنات ، المستبحرة المنا والنجدات ، حيث الرتبتين منها تمتاز العباد والبلاد مدد الوقود ، والكروم التي استثمرتها الروم تفهق لها النخوابي النجوب بدم العنقود ، .....[5]) بدا لاهلها في مخالفة سلطانهم الذي جددنا عهده ، وابرمنا سلمه واكدنا

1) V. Hist. des Berbéres, Trad. de Mr. Le Barón de Slane, IV, 579-80. 2) Cód. 1925 (B) fol. 39 v. y sigs., y con grandes lagunas en 306 (C) fol. 104 y sigs. 3) Suprimo las primeras partes de mera salutación. 4) Paso por alto otras frases jaculatorias. 5) Paso por alto otras frases retóricas de elogio a Jaén.

عقده ، واوجبنا لتوفّر البواعث نصره فاهتبلنا للحين عزة وانتهزناها فرصة وحللنا اليها عقال الفتل الذي كان قد قيّده الايمان وهللنا عليها سيف الله الذي اعمدته المواعدة والامال بعد ان استخرنا الله الولي بالغربة الناصر في الشدة الذي بيده القدرة والعزة والحول والقوة لا اله الا هو خير الناصرين ، ومظهر دينه على كره الكافرين ، ونوينا ان ندفع بهم هضم الاسكندرية.....[1]) فاثمرت استخارة الله لدينا.....[1]) واستدعينا اهل الجهاد ، ونفضنا اطراف البلاد ، عن اولى الجلادة على الجلاد.....[1]) فاستكثرنا من الات القتال ، ورفعنا المجانيق على افلاك الاعجال[2]) وافضنا العطا الذي تجاوز شهور الاستحقاق الى ما وراها.....[1]) واوصلنا الجيوش الى المطوعة الغازين والمرتزقة المدوّنين الى حقوقها في المعنم المتقدم والنفل المبارك للتيقن فتضاعف الارتياش وازيحت العلل واخلصت الضماير النصفة واطابت القلوب المعدلة ولما تكاملت الجموع وتوافت الحشود ، وتعددت[3]) بظاهر حضرتنا الرايات والبنود ، برزنا[4]) نهتدى من الراي الذي تعودنا يمنه بمصباح ، وذبال استصباح ، لا بل بفلق صباح ، وخيمنا على بريد من الحضرة ترفيعا على السبعة ونظرا للفل والجملة مخيّما جمع مقاده من النسم لا يحصيهم الا من كتب خطاءهم في طاعته ، واحصى انفاسهم المطيبة بذكره ، واستحفظ بقع الارض شهادتهم بتوحيده ، وكان اطلالنا عليه ثالث يوم البروز وهو يوم الاثنين الثالث والعشرين من شهر الله المحرم مفتتح هذا العام السعيد في احسن التبعيّة واكمل الاهبة.....[1]) فشره الناس الى العدو ووجهوا الى حومة الحزن حفوفا.....[1]) فانهارت منهم الهضاب وانهالت وتدافعت الاودية وسالت وجنحت الرايات الى حومة الربض الاعظم ومالت كانّهم سحايب الخريف حركتها الزعازع.....[1]) واحاطوا به من قبل ان توزّع الالات وبنوا مقاعد القتال الرماة ففرعوا للحين سوره ، واقتحموا منازله ودوره ، وصدقوا حاميته الضمة ووالوا عليها الشدة حتى ارجعوهم عنها عنوة واستلحموا منه جملة وشمل الربض

1) Paso por alto otras frases sin interés. 2) Así en C, donde se lee parte de este pasaje por على الاعجال de B. 3) En C وتوافرت. 4) En C صدرنا.

النهب ، ورغا فوق اهله العذاب السعب ، وتعلقوا بعده بسور البلد وبادرنا الهيبة وقد هزّت رياح النصر عذبات الرايات ، وسدّ ما بين الخافقين علوّ كلمة الشهادات ، باختلاف الاصوات ، وصكّت الاسماع رعود الطبول ، واستنجز المومنون الصابرون من ربّهم ميقات الوعد المفعول ، ....[1]) ونزل الصبر وانجز الوعد وقذف الله الرعب في قلوب الكافرين ، وامدّ اولياه بالمليكة المسوّمين ، ففرعت اسوار المدينة ضربه ، ودخلت والحمد لله عنوه ، وجاز فرسانها في السكك يطيرون من هيعة الى اخرى والمسلمون ياخذون عليهم الفوهات ، ويسوقونهم الى المتمنّعات ، وقد شرهت السيوف وتخارقت الرماح وحق عليهم القول واخذتهم الرجفة.... [1]) ففتحوا بعض اسوارها والهبوا الخيل ركضا ، واجهدوها خضرا ، وركب المسلمون اكتاف مدبرهم ، واعترضوا وجوه مقبلهم ، فبهروهم بالسيوف ، وعاجلوهم بالحتوف ، واستولوا على اقطار المدينة استيلاء اعجل المجانيق عن الركوع ، وصواعق الصخر عن الوقوع ، وخيل الحرب عن الاحكام ، والاعتدال عنها بالهندام ، وانطلقت الايدى على ما نياله ولا يدركه الكسب من الاموال الدبره ، والامتعة الثرّه ، والذخاير المصونة وانية الزنة الثقيلة والاسلحة المستجادة وعاثت في الخزاين الطامية والاقوات الهايله ودنان الادهان المدّخرة والخمور المفدهة افادة ونهبا واراقة ونقلا الى ما يكاثر الحصى.....[1]) واخذت الدور والقصور والبيع وهياكل العباده ، والرباع الشهيرة ايدى الاثارة والافاده ، فسلطت النار على اعاليها ، والهدم على ما يليها ، وجللها الدخان ، وظللها الخسران ،.....[1]) وهلك بين جدرانها من النسم الكافره ، والطوايف المجانبة للحق المنافره ، بين بئس مقدّم ، وشجاع معلم ، وفارس مغوار ومنتجع فلاحة ومعانى صناعة وملتمس تجر وقنية ومغيم ملة ما لم تستاصله الهزائم الشهيره ، والوقائع المثيره ،..... وتخلص من اسرى المسلمين جملة طرقهم الفرج الذي لا يحتسب ، واللطف التي تنجاب عنه الكرب ، ولجا الفلّ المحروب من جمهورها وهم معثار المعثار من صريعها وماسورها ،.....[1]) الى حمى

1) Paso por alto algunas frases sin interés manifiesto.

القلعات المنتبذة بالقنّة القايمة باعلى الذروة فتراكموا وقد جمع الاصيل ، وجاذب الغرض المميل ، فرتّبنا عليهم المسالح والاحراس ووكلناهم الى عهدة الوحام ، وسو المناد ، وبرح الظما ، وزجر النسما ، وتربّصنا بالاجهاز عليهم انقشاع الظلما ، وبدكرناهم وصُول الغرب الله هادرة وكلمة الحق قايمة وعرايم الصدق ماضية فعاطينا تلك القلعة الشماء الحرب المضرسة التي لم يعهد في زمن سالف ودهم غابر مبلغ فيها الصبر اغيا ما تتجلد به مطولات القصاص وغرائب الاسمار ، ويجمع فيها السنة الاخبار ، فدخلت القصبة الاولى وارتفعت في ابراجها البنود وانتقل من بها الى الثانية ولما افتقر امرها من بعد المحصونة الى المطلوبة ورأينا بعد ذلك ان لا مطمع في استبقاء المدينة اذا استخلصنا القصبة الشامخة وفتحنا القلعة الشاهقة لمكان العقد مع ولي قاعتها ومستحق خربها....[1]) اجبناهم الى ما بذلوا في جماعهم من القرا على الافراج عنهم والاقلاع عن ساحتهم فتم ذلك في يوم الجمعة الخامس من يوم النازلة وتوثقنا في شانهم واقتضينا ماية من متخيّر رهانهم هذا بعد ان جهر المنادي بعقر الاشجار ، وانتساف الاقطار ، فامسى الجناب الاخضر لا يظل ضاحيا ، ولا يقل فراشا هاميا ،..... واتفق من تمام الصنع ان تعلق بمحلتنا عليها وزير السلطان صاحب قشتالة مع كتيبة خشنا من قومه وعدد جم من اتباعه مستجيرا بنا من مطالبة سلطانه طارحا نفسه علينا في تكفّل امانه فراى من وفور محلّات المسلمين ما بلد فكره وحيّر لحظه وشاهد من عظيم اثرهم في البلد المستباح الذي دمّروه ، وعدد من استرقّوه ، واسروه ما ضاعف حسرته ، واذرف عبرته ،....[1]) وعرجنا في الاياب الى مدينة باغة الحجرة من بنات تلك الامم البائسة وفروع تلك الشجرة المجتثة فصارت سحيرا للسيل ، وملتهم الويل ، ومنتهب الرجل والخيل ، والقينا قاطنها قد ولى هربا واتخذ الليل جملا وبيوتها مشحونة اثاثا واقواتا ، ونعما اشتاتا ، فاخذها النهب وفشا في عيصها الاشب العبث وتعلقت النار بياتينها المكان انعلاقة واغرت بها لاجل التسليط السنة السلاطة فقلب الدمار اعيانها رمادا ، والبسها الحريق للنكل حدادا ، وانصرفنا عنها والعمل ان شاء الله على التعقيب

1) Paso por alto algunas frases sin interés.

متوفر والعزم ان شاء الله على العود الى أبدا.....[1]) كتب في اخر شهر الله المحرم من عام تسعة وستين وسبعمائة.

«Fué la gran expedición contra la ciudad de Jaén, capital del reino, sede del Emirato y ciertamente famosa, la cual conquistaron los muslimes por fuerza de armas, a últimos del mes de Dios Almoharrem del año 769 (Septiembre de 1367) y escribí de mi propio puño la carta para el sultán del Mogreb, según se expone a continuación:

Y a esto—Dios inspire a Nos y a Vos su agradecimiento..... En cuanto a la ciudad de Jaén, coloreada por la fama, bosque de bravura, plantío de poder, cima de las capitales fortificadas de los muslimes, estación de la tribu de los árabes del distrito de Kinnesrin, donde los aceitunos desde ella proveen de luz a los siervos y a las ciudades y las viñas que usufructúan los cristianos, hacen que se desborden las hondas jarras con la sangre de sus racimales, se manifestó abiertamente en oposición a su sultán, cuyo pacto teníamos renovado, cuyas treguas de paz habíamos ratificado y consolidado y a quien nos habíamos obligado a auxiliar por múltiples causas. Ganamos poder para el momento y aprovechando su buena ocasión, desatamos respecto de aquella (ciudad) las trabas de la violencia que había atado el juramento, y desenvainamos contra ella la espada de Dios a la cual apoyan las promesas y las esperanzas, después de pedir la gracia de Aquel que es el amigo en la emigración del país natal, el auxiliador en la adversidad, el que tiene en su mano todo poder y toda fuerza, el único verdadero, el mejor de los auxiliadores y el que hace que predomine su religion apesar de la resistencia de los infieles.

Era nuestro propósito hacer difícil a éstos la digestión de Alejandría. La intercesión de la gracia de Dios nos dió sus frutos abundantes. Convocamos a los guerreros de la fe y exploramos los límites de las ciudades desde la primera hasta la última de ellas. Entonces multiplicamos los instrumentos de guerra, montamos las máquinas de artillería sobre las ruedas de acelerar la marcha, derramamos las pagas hasta traspasar los meses de campaña que eran necesarios, y juntamos las tropas a los voluntarios de la guardia africana señalando las recompensas de los inscriptos conforme a los derechos observados en anteriores presas y en el botín de bendita seguridad. Y se acrecentó el replumeo de las flechas, fueron corregidos los defectos, se purificaron los pensamientos de equidad y se mostraron justos los corazones.

1) Paso por alto las últimas frases siguientes de mera súplica a Dios y de despedida y elogio al destinatario.

Cuando se llevó a término y quedó completa la reunión de las tropas y fueron numerados al exterior de nuestra residencia, los estandartes y banderas, salimos dejándonos guiar por el juicio que había de tornar hacia nosotros su lado de buen augurio, con grande resplandor de mechas que alumbraban como si fuesen la luz resplandeciente de la aurora. Acampamos junto a la posta de la capital, y la multitud (de las tropas) acampáda ya reunía de hombres tal número, que solamente podía contarlo Aquel que había decretado el paso de ellos en obediencia suya y numerar las almas que hallan dulce pronunciar su nombre y cuya fe jurada en su unicidad preserva a las regiones de la tierra. Y nos mostramos ante el ejército desde un punto dominante al tercero día de la salida de nuestra corte, que fué el lunes, veintitrés del mes de Dios Almoharrem, primero de este año feliz, en medio del más bello cortejo y del más cumplido aparejo militar.

Las gentes ardían en deseos de venir a las manos con el enemigo, y se dirigieron hacia el pago de *Alhazam* con toda presteza y en forma tal que los montes se derruían y sus tierras se exparcían ante ellos y los valles pugnaban unos contra otros, y los estandartes tendían y se inclinaban hacia el pago del arrabal más grande, como si ellos fuesen nubes de otoño impulsadas por viento impetuoso. Rodearon el arrabal, antes que fuesen distribuídas las máquinas de guerra, y construyeron los parapetos de artillería. Pronto dominaron su muralla y atacaron sus viviendas y aduares. Obligaron a sus defensores a reconcentrarse en un punto de resistencia; mas (los muslimes), continuaron apretándoles hasta que los desalojaron de aquél a viva fuerza y los exterminaron completamente. Todo el arrabal fué saqueado y sobre su gente formaron espuma las ramas desprendidas de los árboles. Después de esto se acogieron al muro de la ciudad. Mas nosotros corrimos súbitamente y ya los vientos de la victoria agitaban los extremos de los estandartes. Entre ambos horizontes fué cerrada la elevación de la palabra de los actos jurados de la fe en medio de la confusión de las voces. La audición era entorpecida por el retumbar de los atabales, y los creyentes manteniéndose firmes, pedían a su Señor el cumplimiento de las promesas ofrecidas. Descendió la resistencia y fué cumplida la promesa; pues Dios había infundido el miedo en los corazones de los infieles y socorrió a sus amados con el auxilio de los ángeles más distinguidos. Entonces fueron batidos los muros de la ciudad y entrados—sea Dios alabado—por asalto. Los ginetes enemigos atravesaban las calles volando en tropel hasta la última, y los muslimes les tomaban las salidas y les atraían a las partes fortificadas. Y ya devoraban los sables y rasgaban las lanzas y se confirmó contra aquéllos la palabra (de Dios) y les sobrecogió el temblor.

Entonces abrieron (los defensores cristianos) una parte de los muros de la ciudad y lanzaron los caballos a toda carrera excitándolos en vano; porque los muslimes persiguieron las espaldas de sus fugitivos, rechazaron a los que les hicieron frente, tajándoles con los sables y dando pronta cuenta de sus vidas, y se apoderaron de los flancos de la ciudad con suma prontitud, que aceleraron las máquinas de batir más pronto que fueron reparadas, los fuegos del cielo antes que caían y los caballos guerreros antes que fueron ordenados en forma simétrica. Las manos quedaron libres completamente para lo que pudiesen coger, no podían abarcar la abundancia de riquezas abandonadas por los fugitivos, de utensilios esparcidos, de tesoros guardados, de vasos de gran peso, de armas excelentes, y quedaron vacías las alhacenas desbordantes y consumidas grandes cantidades de víveres, jarros pulimentados preciosos y potes guarnecidos con cobertera de plomo, bien por razón de utilizarlos, o por efecto del pillaje, por haber sido esparcidos o trasplantados, y todo esto en cantidad incalculable. Las manos de la venganza y de la utilidad se apoderaron de las viviendas, alcázares, templos, casas de piedad y mansiones notables. El fuego alcanzó a los puntos más elevados de la ciudad, y la destrucción a todos sus contornos.

El humo le hizo honores, y sombra la perdición. De infieles y de taifas inclinadas a la verdad discutible, entre varones valientes y bravos conocidos, ginetes, almogávares, labradores, artesanos, comerciantes, traficantes y mantenedores de la doctrina religiosa, pereció una cantidad tal que no habían exterminado las derrotas famosas, ni los combates más señalados. Y quedó salva una multitud de cautivos muslimes a los cuales sobrevino la alegría del consuelo que no se espera y de la compasión que disipa la tristeza. Y escapó un resto de las tropas derrotadas de la ciudad, como algunas docenas de sus maltrechas y cautivadas, a refugiarse en la defensa de los castillos separados sobre un montículo que se alzaba en su cima más alta. Se apretaron, y ya se acercaba e inclinaba la hora del crepúsculo de la tarde. Establecimos contra ellos guardias y defensas y les dejamos confiados a las molestias de la estrechez producida por la excesiva concurrencia, al mal dormir, a la aflicción de la sed y al tronar del cielo. Aguardamos hasta que se les terminase la disipación de las tinieblas, y vinimos a ellos de madrugada al ruido de los tambores de Dios, en pie la palabra de la verdad y con las firmes resoluciones sinceras en penetrante acción. Servimos a aquellos altos castillos una acometida atroz, como no había sido vista en el tiempo pasado ni en el presente, y en la cual llegó la resistencia a más extremo límite que aquella de que es preciso armarse en los largos

recitados y en las conversaciones extraordinarias nocturnas, cuando la información produce sufrimiento en la lengua.

Entonces fué tomada la alcazaba primera, en sus torres fueron alzados los pendones, y los que estaban en ella, se trasladaron a la segunda. Cuando vino a ser apurada la situación de esta sin otro éxito que derramar impunemente la sangre, y vimos después de esto que no tenía objeto apetecible conservar la ciudad, puesto que nos habíamos apoderado de la alcazaba alta y del castillo más dominante, previo pacto con el gobernador de su recinto y exigiendo que habría de ser destruída aquélla, accedimos a lo que por su rescate general ofrecieron a condición de retirarnos y levantar nuestro campo de su término. Esto quedó concluído en el viernes, quinto día del asedio. Nos aseguramos de ellos exigiéndoles cien rehenes escogidos, y esto después de haber publicado el pregonero la tala de los árboles y el asolamiento de las comarcas, y las verdes inmediaciones aparecieron, en efecto, por la tarde en forma de no poder brindar su sombra al caminante a la hora del mediodía, ni servir de alfombra al indigente.

Como complemento de ese favor divino, aconteció que vino a nuestro campo junto a la ciudad referida, un visir del sultán señor de Castilla con un grueso escuadrón de su gente y con crecido número de sus secuaces implorando nuestra ayuda contra cierta reclamación de su sultán y poniendo en nuestras manos la garantía de su perdón. Y vió la abundancia de campamentos muslimes quedando asombrado y estupefacto, y fué testigo de su grande huella en la ciudad asolada, que habían destruido y del número de cautivos y prisioneros que habían cogido; todo lo cual aumentó su angustia y le hizo derramar lágrimas.

Al retornar hicimos alto ante la ciudad de Priego, gabinete de las hijas de aquellos pueblos desgraciados y cima de aquellos árboles talados, y vino a ser objeto de devastación para el torrente, de asolación para el infortunio y lugar de rapiña para peones y ginetes. Encontramos que sus habitantes habían escapado aprovechando toda la noche, y que sus casas estaban llenas de útiles y provisiones y los ganados dispersos. La rapiña se enseñoreó de ella, el goce se extendió por sus bosques de árboles cuyas ramas se entrelazaban, el fuego se pegó a sus olivares, las lenguas de aquél se inspiraban en ella con gran facundia, la ruina le produjo enfermedad en sus ojos, y el incendio la revestió con cadena de hierro.

Nos retiramos de ella (de Priego) y la acción divina sucesivamente acrecentada y la firme resolución, si Dios quiere, volver hacia Ubeda. Fué escrita en últimos del mes de Dios Almoharrem del año 769 (Septiembre de 1367).

§

Mohamed V comunica al susodicho sultán de Fez, Abdelaziz, la toma y destrucción de Ubeda

La campaña contra Úbeda fué realizada por Mohámed V seguidamente después de la de Jaén, sin dejar pasar más tiempo que el necesario para reorganizar su hueste, proveerse de municiones y reparar sus útiles para el cerco y asalto de las ciudades y fortalezas. A este fin parece ser que se retiró a Priego, donde hizo la concentración de todas sus fuerzas, convirtiéndole, como se dice en la carta, en estribo para montar sobre Ubeda.

La carta siguiente en que se da cuenta del resultado de la algara de Úbeda, lleva expresa la fecha de Noviembre de 1367.

He aquí su parte interesante:

وكانت الحركة بعدها في اوايل شهر ربيع الاول المبارك من عام تسعة وستين وسبعماية الى مدينة ابدة فاحتلّ السلطان بمن لنظره من جيش المسلمين بظاهرها فافتتحها عنوة واستولى على مساكنها التدمير والتتبير وعفيت اثارها وهدمت كنيسها واسوارها وقفل الى حضرته العلية يجنب نصرا لاكفاله وصدرت عنه مخاطبة سلطان المغرب من املاء بما نصه بعد سطر الافتتاح[1]).

.....[2]) وقد كنا عرفناكم في هذا الكتاب قبل هذا اننا على ركاب جهاد ، واستيناف احتشاد ، الى مدينة ابدة لنهيض منها ثاني جنحي الكفر ، ونومن الجهات الشرقية بفضل الله عادية الضر ، وتفجع الشرك بحبيبتيه[3]) ، ونصيبه من

1) Cód. 1825 (B) fol. 42 v. y sigs. y 306 (C) fol. 105-6, que sólo contiene algunos cortos fragmentos de la carta. 2) Paso por alto las primeras partes de la carta por los motivos tantas veces apuntados. 3) En B بحبيبته.

بعد يسراه بيمن يديه ، فاستعنّا بالله القوي المعين ، واستنجدناه على فتح معقلها وهو خير الفاتحين ، واستدعينا كافّة اهل الاسلام لمادبة الجهاد ، الواضح الاشهاد ، فحيوا[1]) طايعين ، وفي فوز ايديهم باحدى الحسنيين طامعين ، واستكثرنا من الالات والاسباب ، واستبحرنا من معارج السورات وخوابي النشاب ، ولم ندع حيلة تبقر سورا ، ولا تهويلا يذعر محصورا ، ولا الة تحط وقاية منصوبه ، ولا نكاية تحطم بلدة محروبه ، الاّ استرذلنا من انواعها واجناسها ، وتمّمنا ما نقص من قياسها ، بعد ان اعتقدنا ان لا غالب الا الله وحده.....[2]) وافضنا العطاء في المرتوقه ، وفسحنا الدواوين الملتحقه ، وحملنا من نفق في سبيل الله جواده ، واعنّا من قصّر عن مؤونته زاده ، وخرجنا والتوكل على الدليل ، والمواكب الظن الجميل ، ومتعوّد الصنع الظل الظليل ،.....[3]) فخيمنا على اميال من الحضرة مخيما بادي الوفور ، محفوفا بالعز المشهور ، والنصر الرائق السفور ، ثم رحلنا بعد مراحل ضفة الوادي الكبير من احوازها المستباحه ، وعمالتها المخروبة الساحه ، والعدو بعرضيه جهر عانى مثل فوقه حصن حصين يمنع العابر ، ويصد الوارد والصادر ، فالفيناه وقد ضابط دربه ، وقيام سلمه وحربه ، فاغفلنا الله عن قصّ علقه واقتحمنا[2]) تجري فوقه سيول الحشود ، وتنشر النمل غير المحصور ولا الممدود ، لا بل قطائع الليوث الغلب والاسود ، ولما صبحنا ساحتها ، وازمعنا بعزة الله استباحتها ، نظرنا الى مدينة عائله ، عمارتها في الارض العصماء جليله ، وادراجها الاشبة مايله ،.....[3]) ثم نهدنا فامرنا الجموع بالاسوار دور للسوار ، بعد ان عممنا بكتائب الغرار ، ظهور النجادة وبطون الاغوار ، وارسلنا اليها طيور المنيّات ، من اوكار المحميات ، ورجعنا بذوات الادراج ، الى الابراج ، وعاطيناها حربا تمرّجت لابطالها الحور ، وتحلّت بشذور النجيع منها النحور ، وعلت بالشهادة الاصوات ، وحامت من

1) En B sin puntos. (2 Hay en el texto de B cierta señal como de falta de alguna o más palabras; en C falta todo este pasaje. 3) Paso por alto algunas frases de elogio y de súplica a Dios, o puramente retóricas.

موارد الكماة وبيعت من آلة النفوس ، ودارت الاجال الدروس ، حتى انمر النصر ثمراته المعهودة... [1]) ودخلت المدينة والقدرة لله غلابا ، وتقسمتها ايدي الاسلام قتلا واستلابا ، فاخذت جذل الرماح على اقفارها بوجه الازقة.....[1]) واقتحمت الدبرة والدور ، وخسفت في مطالع بروجها الخافرة البدور ، وانتسفت الاقوات ، واوقع بالكفر القوات ، واخليت من سروج فرسانهم الصهوات ، وايمت من ابنايها الاخوان والاخوات ، وكان مسورها الذي تعاصى عن الورع والمساحة ثوره ، وتعدّى حدود المدينة الرحيبة طوره ، قد استودعت اقصيته تعم مسارحها التي اخافها الخلاف ، وامّم فحوصها الفيح التي يخشى عليها الاتلاف ، فالفاها المسلمون الوفا لا تحصى ، وحملا عسر ابرازه على التجبل واستعصى ، فتناولها الانتهاب والاقتسام ، وامهلت هضابها التجسام ، واقيمت نما في هذا الميلاد الكريم المواسم الوسام ، واما الاعوا الموصله ، والخوابين المجهله المفضله ، فاعيا نقلها الظهور ، واستغرق الايام لا بل الشهور ، ونجا انفل من اقلها الى القصبة التي تسع الجمله ، وتوهم المعتصم بها العطف والمهله ، فاستماتوا من وراء سورها العاصي الينا ، وابلوا من دون الحريم والابنا ، وزحف اليهم الرجال ، حتى ضاق بهم المجال ، ورشقتهم السهام ، بما لا تصوره الاوهام ، وامطرت عليهم السماء حجارة القذف ، وشرعت الى اسمايهم عوامل الحذف ، واسفوا على المتالف ، ورأوا في انفسهم مواقع الرماح من النحور والسيوف من السوالف ، الّا اننا راينا انها قصبة مستعدّه ، قد تحصل بها من القاشبة والرامحة عدّه ، فلا يتوصل الى افتتاحها الّا بمهج ونفوس من المسلمين عليها تسيل ، وحماة نها في الاسلام الغناء الجميل ، وفي سلامتها التاميل ، وان البلد قد استوصل معموره ، والصقت بالرغام دوره ، وسد دكّه وذلّ سوره ، وتعدد ثلمه وماسوره ، بحيث لا يقيل ابدا من بوار ، ولا يجبر كسره الا بعد انقضاء ادوار ، وان القصبة لا تبدي في اعتماره ولا تعيد ، وابن يقع ساكنها

1) Paso por alto algunas frases sin interés.

مما تريد ، فشرعنا في الاياب والتسكن بالاوطار قد ضاقت ، والايدي قد حملت فوق ما اطاقت ، والمناصل قد انهرت واراقت ، ونقمة الله بعدوه قد حاقت ، ونعمه قد بهرت لدينا وراقت ، وتخلفنا قصورها السامية قيعانا ، وكنايسها الحافلة آثارا لا عينا ، وقد اخذ الله صلبانها ، واستجعل النيران رهبانها ، واتى الله بيوتها من القواعد فخرّت ، وزلزل مصانعها العالية فاستوت على وجه الصعيد واستقرّت ،.....[1]) ولما فرغت الايدي المجاهدة من داخلها الهائل تدميرا وتخريبا ، وتهيّبات هبّات الله جل جلاله نصرا عزيزا وفتحا قريبا ، انطلقت على ما بخارجها عفوا الاشجار ، وتعفية الآثار ، وتعويرا الانهار ، وتسليطا الالسنة النار ، واغرينا بهذا الغيات اياما سبعة تستّى النعم ، وتبثّ في جهاتها النقم ،.....[1]) وقفلنا والالوية بالنصر خافقه ، واسواق الظهور نافقه ، والسنة الحمد والشكر ناطقه ، والظنون في فضل الصادق صادقه ، والكفر قد ذلّ واستكان ، ودخل ثغره في خبر كان ، وعز الاسلام قد ظهر واستبان ،.....[1]) وان كان هذا الموطى الذى يغيظ الكفار.....[1]) فكيف لا نحمد الله على تخريب هذا المطر الشهير ، والقطر الخصيب الخطير ، بحيث تمضى الاحقاب وهو عبرة لمعتبرين ، وواعظا للمبصرين المستبصرين ، وحديثه لسان صدق في الاخرين ، ومقامكم وجهة المبشرات مهمى يسرها الله وكيفها ، والصنائع اذا اولاها جل جلاله وعرفها ، عليكم تجلو اصورها ، ولديكم تتلو اسورها ، علما من دينكم الذي علمت مساهمته ونصحه ، واشرف في افق الفضل صبحه ، ولما لسلفكم من اثر بهذه البلاد لا يخفى ، واعانة حقوقها المرعية لا تخفى ، واجورها عند الله توفى ، وانتم وارث ذلك الاعز كلاله ، وولي ما تخلفه من مجد وجلاله ، وانا لنرجو ان يكون لكم في الجهاد هذه البلاد القدح المعلي ، والاثر الذي يتلى بيمن نقيبتكم قد اشرف وتجلّى ، وعلى ميادين الظهور قد استولى ،.....[1]) ونحن نشرع في اعمال الحركة التى قرطبة دمّرها الله واتقين بذى العزة والجلال ،

1) Omito algunas frases sin interés.

مستظهرين بنيّتكم الكريمة الجميلة بسعادة المآل ، ودعاء من لديكم من المسلمين بما يقضي ببلوغ واجبة السؤال ، والله يصل لكم سعدا مديد الظلال ، بامتداد البكر والاصيل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

En los primeros días del mes de Rebia 1.º del año 769 (Septiembre-Octubre de 1367), después de lo de Priego, se dirigió la *harca* a la ciudad de Úbeda, en cuyas afueras acampó el sultán (Mohámed V) con el ejército de los muslimes confiado a su dirección. La ciudad fué tomada por asalto, y la ruina y la perdición se apoderaron de sus viviendas, fueron borradas sus huellas y destruídas sus iglesias y murallas. Y se trasladó (el sultán) a su corte ilustre llevando la victoria a su grupa. Y compuse de su orden, para el sultán del Mogreb, la siguiente comunicación de mi puño, como a continuación se expone, después de trazar el preámbulo:

.....Ya os habíamos comunicado en este escrito, antes de esto, como Nos estábamos sobre el estribo de la guerra santa y comenzando a reunirnos contra la ciudad de Ubeda, a fin de cortar con ella una de las alas de los infieles y asegurar a las partes de la Xarquia (región oriental del reino de Granada) el impedimento del daño, por virtud de Dios, para herir a la idolatría en sus cosas queridas y atacarle una vez pasado su lado izquierdo, con mano derecha. Pedimos, pues, auxilio a Dios, el verdaderamente poderoso, imploramos su asistencia para la conquista del castillo de aquella ciudad, ya que El es el más excelente conquistador, llamamos a los varones de mérito del Islam invitándoles a la guerra santa de evidentes testimonios, y fueron obedientes y ansiosos de asir con sus manos una de las dos cosas bellas (la victoria o el martirio). Acrecentamos los armamentos y provisiones de guerra, aumentamos los instrumentos de escalar los muros y los depósitos de flechas y no pedimos ingenio para abrir portillo en las murallas, ni para causar espanto al sitiado, ni instrumento para establecer vigilancia de precaución, ni medio alguno para oprimir a una ciudad sitiada, que no los tuviésemos con creces, según sus diferentes géneros y formas, y que no completásemos lo que se hubiese apurado en sus copas, después de hacer acto firme de fe de que solamente Dios, que es único, es el vencedor. Derramamos las soldadas para la subsistencia de las tropas y reunimos con largueza los medicamentos. Facilitamos montura a aquellos que habían perdido su caballo en el sendero de Dios, y auxiliamos a aquellos cuyas provisiones de campaña eran escasas. Salimos, y la confianza puesta en el Guía por excelencia, acompañando la buena conjetura y reiterado el favor divino de sombra espesa. Levantamos

nuestras tiendas a unas millas de la capital, en un campamento de manifiesta abundancia, rodeado del poder reconocido y de la victoria de brillante resplandor.

Luego caminamos durante unas jornadas por la orilla del Guadalquivir, por sus alfoces desolados y sus términos arrasados, y el enemigo en sus dos márgenes ofrecía un aspecto elevado, tal como si sobre el río se alzase un fuerte castillo que interceptase el paso al caminante y apartase al que ascendiese o descendiese, y le encontramos que ya había fortificado su camino y el mantenimiento de su salvación y del ataque. Mas Dios nos dispensó cortar su cerradura y precipitamos, para que corriesen sobre él, los torrentes de las tropas, y cubrieron las hormigas tanto lo angosto como lo espacioso, no de otro modo que si fuesen bandas de bravos leones. Cuando a la mañana llegamos a su lado y resolvimos, contando con el poder de Dios, su destrucción, miramos a la ciudad de enorme cultura en medio de la tierra de las cañas y de los árboles con las ramas entrelazadas e inclinadas. Después caímos sobre el enemigo y mandamos que se reuniesen los arqueros alrededor del muro, luego de haber hecho extensivo a los escuadrones de la falsedad el triunfo de la bravura y el interior de los fosos. Y enviamos hacia ella (la ciudad) los pájaros de los infortunios desde sus nidos sinuosos. Y aproximamos las maestras de las escalas a las torres y las atacamos, sirviendo la perdición de adorno para sus bravos defensores y decorándose las gargantas con las pequeñas perlas de la sangre, y se alzaron altas las voces de la profesión de fe, se defendieron las avenidas de los valientes, fueron vendidas a Dios las almas y circularon los vasos de los términos de la vida, hasta que el auxilio divino dió su fruto prometido, y fué tomada la ciudad, y el poder de Dios vencedor siempre, y las manos del Islam dividieron a aquella entre la muerte y el pillaje. El poder de las lanzas tomó contra los infieles el aspecto del día del juicio final. Fueron asaltadas las viviendas y los aduares, en los horizontes de las torres infieles quedaron eclipsadas las lunas brillantes y derramados los mantenimientos, cayó sobre los infieles la muerte, las sillas de montar quedaron vacías de sus caballeros y huérfanos de sus padres los hermanos y hermanas.

El amurallado de la ciudad que impedía la siembra y el paso de su circuito y mostraba altaneros los límites de la espaciosa ciudad, había procurado que su parte extrema comprendiese aquellas de sus praderas cuya pérdida era de temer, y que sus campos tuviesen la hierba cuya devastación pudiera igualmente inspirar temor. Los muslimes encontrárońla como millares que no pudieran ser contados, como una carga que fuese muy penoso y difícil elevarla sobre la montaña. Mas se apoderaron de ella el pillaje y el reparto del botín, fueron allanadas sus grandes

colinas y por ella serán celebradas en esta Natividad (de Mañoma) las fiestas más bellas. De objetos apetecibles y de tesoros abandonados y restantes, es imposible hacer su recitado y se consumirían los días sin hacer su mención.

Los restos fugitivos de la gente de la ciudad se refugiaron en la alcazaba inexpugnable que tenía espaciosa capacidad para una multitud y brindaba seguridad al que se acogía a ella. Y se resolvieron a morir detrás de sus muros y a luchar todos sin excluir las mujeres y los hijos. Avanzaron contra ellos los peones hasta que su situación fué apurada, llegando a caerles las flechas en cantidad que no es posible imaginar, y arrojando sobre ellos las nubes piedras de balística. Hasta la parte alta de los refugiados se abrieron camino las puntas de las lanzas y aquéllos llegaron a temer su perdición y se consideraron ya como teniendo las lanzas sobre sus pechos y los alfanjes sobre sus nucas. Mas hubimos de juzgar que aquella alcazaba estaba fuertemente guarnecida, habiéndose apreciado en ella abundancia de sables y lanzas y que, por tanto, no se llegaría a tomarla, si no era a costa de hacer correr sobre ella la sangre y las vidas de los muslimes cuya protección en el Islam es una gran riqueza y en su salvación estriba la esperanza, a más de que el cultivo próspero del término de la villa había sido destruído radicalmente, echados a tierra sus aduares, estragada su campiña y arrasados sus muros con multitud de muertos y cautivos, de suerte tal que jamás podrá resurgir de su ruina, ni reparar su quebranto, a no ser después de extinguidas las revoluciones de los tiempos. Y ciertamente la alcazaba no ha de hacer grande esfuerzo en la restauración del florecimiento de aquél, ¿y adónde irá su morador desde el sitio que quiso?

Emprendimos nuestro retorno y los caminos resultaban angostos para el acarreo de las abundantes cargas, las manos transportaban más de lo que podían abarcar, los sables habían derramado y hecho correr la sangre, la venganza de Dios sobre sus enemigos todo lo rodeaba y sus beneficios resplandecían y brillaban en nuestro favor. Dejamos atrás los alcázares de la ciudad como nariz achatada y sus iglesias pomposas como una huella invisible. Dios tomó sus cruces e hizo pasto de los fuegos a sus monjes. Atacó a sus moradas en sus cimientos y se desplomaron. Sus monumentos temblaron y quedaron nivelados con la superficie del suelo.

Y cuando terminaron las manos de la guerra santa de arruinar y destruir el interior espantado de la ciudad y dispusieron los soplos de Dios, grande por excelencia, un auxilio poderoso y una victoria inmediata, se entregaron libremente a las afueras de aquélla, arrasando los

árboles, borrando los vestigios, reduciendo las riberas a la pobreza e incendiando con las lenguas del fuego. Siete días amanecimos con estos auxilios, apresando rebaños y esparciendo por los términos de la ciudad las venganzas de Dios.

Nos trasladamos de aquel lugar, con las banderas agitadas por el triunfo, con los zocos de la victoria bien acreditados, profiriendo las lenguas alabanzas y gracias a Dios y con los pensamientos confirmados en la excelencia del Veraz. En cuanto a los infieles, humillados y abatidos, penetraron en su frontera anunciando la nueva y cómo el poder del Islam se había mostrado claro y evidente.

Y siendo esa humillación la que irrita a los infieles; ¿cómo no hemos de alabar a Dios por la destrucción de esa famosa capital y de esa comarca en extremo fértil durante el transcurso de los años? Pues ella es una experiencia para los que tratan de experimentar y una exhortación para los que procuran observar atentamente, y su tradición será lengua que hablará con verdad a los que vivan después. Vuestro Estado es la dirección de las buenas nuevas siempre que Dios las concede propicias y las otorga, y de los beneficios cuando los acuerda y dispone; a Vos mostramos la más inclinada de ellos y a Vos la hacemos seguir, por lo que sabemos de vuestro sentimiento religioso cuya lealtad y sinceridad es conocida y cuya luna nueva resplandece en los horizontes de la virtud, y teniendo en cuenta la influencia de vuestros antepasados sobre estas ciudades, la cual no se puede ocultar, el auxilio de sus derechos políticos que nos es manifiesto, y sus recompensas ante Dios que se han cumplido. Vos sóis el heredero de esa potente familia y el dueño de su gloria y nobleza posterior. Nos, en verdad, esperamos que sea para vos en la guerra santa en estas ciudades la porción más excelente y la huella que hará feliz a vuestro espíritu que ya resplandece, se muestra brillante y domina sobre los hipódromos del triunfo. Nosotros nos apresuramos a realizar nuestra expedición hacia Córdoba—Dios la destruya—fiados en el Poderoso y Grande por excelencia, demandando el apoyo de vuestra noble intención que garantiza un éxito feliz y la llamada de vuestra parte a los muslimes respecto de aquello a cuya petición es obligatorio responder favorablemente. Dios os acuerde una dicha de extensa sombra protectora en toda la prolongación de las mañanas y de las tardes Y la salud sobre Vos y la misericordia y las bendiciones de Dios.

§

Mohamed V comunica al susodicho sultán de Fez Abdelaziz el resultado de su campaña contra Córdoba, en unión de D. Pedro y sus partidarios, a quienes había encontrado en Casariche, para caer juntos todos sobre Córdoba.

En esta carta sobre la expedición contra Córdoba ha sido omitida la fecha, como en tantas otras de las comprendidas en los manuscritos del Escorial, que me están sirviendo para el presente trabajo. Mas leyéndola con atención y previo el conocimiento de las que anteceden, es fácil pensar que fuese escrita, como éstas, seguidamente a la ejecución de las operaciones que en ella aparecen detalladas. Ahora bien; el sitio de Córdoba que aquí se precisa, el asolamiento de su campiña hasta Andújar, la retirada del ejército moro a sangre y fuego por tierra de Jaén hacia Granada, y sobre todo la circunstancia de haber emprendido Mohamed V esta campaña, de perfecto acuerdo con D. Pedro, quien le esperaba con sus fuerzas en Casariche para desde allí caer juntos sobre Córdoba, son hechos que solamente pudieron ocurrir en la primavera del año 1368, tiempo en que la capital de Córdoba había negado realmente su obediencia a D. Pedro, dándose a su hermano D. Enrique. Respecto de esta campaña creo muy exacta la referencia al año citado 1368, que se lee en la crónica de López de Ayala.

والى هذا... .[1]) فانّنا نوثر تعريفكم بتافه المتزيدات ، ونورد عليكم اشتات الاحوال المتجددات ، اقامة لرسم الخلوص في التعريف بما قل ، ومودّة خالصة في الله عز وجل ، فكيف اذا كان التعريف ما تهتز منابر الاسلام ارتياحا لوروده ، وتنشرح الصدور منه لمواقع فضل الله وجوده ، والمتكيّفات

1) Cód. 1825, fol. 152 y sigs., y 306, fol. 157, que sólo contiene algunas frases, faltando la mayor parte de la carta, como ocurre de muchas otras en este códice contenidas. Paso por alto las partes de la carta de mera salutación y sin interés histórico.

البديعة الصفات في وجوده ، وهو انّنا قدمنا اعلامكم بما نويناه من غزو مدينة قرطبة امّ البلاد الخاضره ، ومقرّ الحمامية الشهيرة والذخيرات الوافره ، والقطر الذي عهده بانمام الاسلام متقادم ، والركن الذي لا يتوقع صدمة صادم ، وقد اشتمل سورها من زعماء ملة الصليب على كل رئيس بئيس ، وغوير خبيس ، وذي مكر وتلبيس ، ومن له شيعة تذيع مكانه وتشيعه واطلاع على المنشط والمكر.....[1]) فاستدعينا المسلمين من اقاصي البلاد ، واذعنا في الجهات نفير الجهاد ، وتقدمنا الى الناس.....[1]) واعطينا الحركة التي تخلف المسلمون وراءهم جمهوريا للكفر من الاقطار والاعداد ، حقها من الاستعداد ، وافضنا العطاء والاستلحاف والاستركاب من اهل العناء وابطال الجلاد ، فحشر الخلق في صعيد ، واخذوا الاهبة والزينة في عيد سعيد ، وشمل الاستدعاء كل قريب وبعيد ، عن وعد ووعيد ، ورحلنا وفضل الله شامل ، والتوكل عليه كاف كافل ، وخيّمنا بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس آرابهم ، واستكملوا اسرابهم ، ودسنا منهم بلاد النصارى بجموع كثرها الله وانماها ، وابعد في التماس ما عنده من الاجر منتهاها ، وعندما حللنا مدينة طاشره وجدنا السلطان دون بطره مومل نصرنا واجتهادنا ، ومستفيد حظه من لواحق جهادنا ، ومقتضى كدح دينه باعانتنا اياه واجتهادنا ، قد نزل بظاهرها في محلات فمن استقرّ على دعوته ، وتمسك بطاعته ، وشمله حكم جماعته ، فكان لقاؤنا اياه على حال اقرّت عين المسلمين ، وتكفلت باقرار الدين ، ومجملها يغني عن التعيين ، والشرح والتبيين ، ورأى عدو ومن معه من وفور جيوش الله ما غالهم ، واشل في حال اليقظة خيالهم ، من جموع تسدّ بالبيه الفضا ، وابطال تقارع[2]) اسود الغضا[3]) ، وتتائب منصوره ، ورايات منشوره ، واعلام محشوره ، ونداء بكلمة الشهادة يسلّ بين الخافقين ، ومحلات تفضل عن مرأى العين ، فاعترفوا بما لم يكن

1) Espacio vacío en B como de una sola palabra. En C falta todo este pasaje.
2) En B تسارع. 3) En B الغضا.

في حسابهم ، واعتبر في عزة الله اولوا البابهم ، واذا كثر الله العدد نماء وزكا ، واذا ازاح العلل ما اعتذر عان ولا شكا ، وتهللت من الغد الامالمح بالاعتراف ، وسمت الهوادي الى الاستشراف ، واخذ الترتيب حقه من المواسط الجهادية والاطراف ، واحكمت التعبية التي لا ترى العين فيها خللا ، ولا يجد الاختبار[1]) عندها دخلا ، وكان النزول على فرسخ من عدوة النهر الاعظم.....[2]) من خارج المدينة انجز الله وعد دمارها ، واعادها الى عهدها في الاسلام وشعارها ، ومحا ظلام الكفر في افاقها بملة الاسلام وانوارها ، وقد برزت من حاميتها شوكة سابقة الذروع ، وافرة الجموع ، استجنت من اسوار القنطرة العظمى بحمى لا يخفر ، واخذ اعقابها من الرماة والكماة العدد الاوفر ، فبادر اليهم سرعان خيل المسلمين فصدقوهم الدفاع والقراع ، والمصال والمصاع ، وخالطوهم هبر بالسيوف ، ومبادرة بالحتوف ، فتركوهم حصيدا ، واذاقوهم وبالا شديدا ، وجدلوا منهم جملة وافره ، وامة كافره ، وملكوا بعض تلك الاسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقه ، وظهرت علينا عزماتهم الصادقه ، واقتحم المسلمون الوادي سبحا في غمره ، واستهانة في سبيل الله بامره ، وخالطوا حامية العدو في ضفته فاقتلعواها ، وتعلقوا باوائل الاسوار ففرعوها ، فلو كنا في ذلك اليوم على عزم من القتال ، وتيسير للالات وترتيب للرجال ، لدخل البلد ، وملك الاهل والولد ، لاكن اجار الكفر من اليل كافر ، وقد هلك منهم عدد وافر ، ورجع المسلمون الى محلاتهم ونصر الله سافر ، والعزم ظافر ، ومن الغد خضنا البحر الذي جعلنا العزم فيه سفينا ، والتوكل على الله للبلوغ ضمينا ، ونزلنا من ضفته القصوى منزلا عزيزا مكينا ، بحيث تجاور سورها ، طنب القباب ونصيب دورها ، من بين المخيمات بوارق النشاب ، وبرزت حاميتها على متعددات الابواب ، مقيمة اسواق الطعان والضراب ، فابت بصفقة الخسران والتباب ،

1) En B, único en que se halla este pasaje, الاحسار. 2) Espacio vacío en B como de una sola palabra. En C falta todo este pasaje.

ولما شرعنا في قتالها ، وردينا اشتات النكايات لنكالها ، وان كنّا لم نبن على مقاولة توالها ، انزل الله من المطر الذي قدم لعهده العهد ، وسوى النجد من طوفانه الوهد ، وعظم به الجهد ، ووقع الابقاء على السلاح ، والكف بالضرورة عن الكفاح ، وبلغ المقام عليها ، والاخذ بمخنقها والثوا لديها ، خمسة ايام لم تخل فيها الاسوار من افتراع ، ولا الابواب من دفاع عليها وثراع ، وانفذت مقاتل المستقر انقابا ، وارتفعت الفتح الموعود ارتقابا ، وفشت في اهلها الجراح ، والعبت الصراح ، وساءهم المساء بعزة الله والصباح ، ولولا عائق المطر لكان الاجهاز والاستفتاح ، والله بعده الفتاح ، صرفت الوجوه الى تخريب العمران ، وتسليط النيران ، وعقر الاشجار ، وتعفية الاثار ، التي منها العفاء على المصر الشهير في الامصار ، وتركت زروعها المائحة عبرة للابصار ، ورحلنا عنها وقد المسها الدخان حدادا ، ونكس من طفاتها اجيادا ، فاعتادت الذل اعتيادا ، والفت للهون قيادا ، وكادت ان تستباح عنوة لولا ان الله جعل لها ميعادا ، وانى القتل من ابطالها ، ومشاهير رجالها ، ممن مبارز ويناطح ، ويماسى بالباس ويصابح ، على عدد جم اخبرت سماتها المشهورة باسمايهم ، ونبّهت علاماتها على نبهائهم ، وظهر من اقدام المسلمين في المعتركات ، وفورهم بالحدود المشتركات ، وتنفيلهم الاسلاب ، وتوّدعم الخيل المسوّمة قود الغلاب ، وكان الفضل ، وقد شمل الامن والقبول ، وحصل الجهاد المقبول ، وراع الكفر النعر الذي يهول ، والاقدام الذي شهدت به الرماح والخيول ، وخاض المسلمون من زرع الطريق الذي زرعوها ، والمنازل التي استباحوها فيها وانتهبوها ، بحورا بعد منها الساحل ، وفلاحة مدركة تتعذر فيها المراحل ، فصيروها صريما ، وسلطوا عليها النار عريما ، وحلّوا بظاهر حصن اندوجر وقد اصبح مالف ادمار غير اوشاب ، ووكر طيور نشاب ، فلما بلونا مراسه صعبا ، وابراجه ملئت حرسا وتنهبا ، ضنّنا بالنفوس ان تفيض من دون افتتاحه ، وسلطنا العفاء على ساحه ، واغرينا الغارات باستيعاب ما باحوازه واكتساحه ، وسلطنا النار على حروته وبطاحه ، والصقنا بالرغام ذوائب ادواحه ، وانصرفنا بفضل الله والمناصل

دامية ، والاجور نامية ، وقد وطئنا المواطىء التي كانت على الملوك بسلا ، ولم نترك بها حرثا يوقد نسلا ، ولا ضرعا يرسل رسلا ، والحمد لله.....[1]) عرفناكم بهذه المكيّفات ، الكريمة الصفات ، والصنائع التي بعد العهد بمثلها في هذه الاوقات ، علما بانها لكم اسنى الهدايات الودّيات ، وكما نعلمه من حسن النيّات ، وكرم الطويّات ، فانتم سلالة الجهاد المقبول ، والوفد المبذول ، ووعد النصر المفعول ، ونسئل الله تعلى أن ينقل حنيانكم المعاهد الجهاديه ، الى المعاقيّة في نصر الملة المحمديه ، وان يجمع بكم كلمة الاسلام ، على عبدة الاصنام ، ويتمّ النعمة على الانام ، ووفّقنا لكم ما علمتم يزيد على مر الايام ، ....[1]) والسلام.

Y a esto: Si Nosotros hemos venido informándoos de las novedades insignificantes y os hemos expuesto hasta las diversas circunstancias renovadas, en guisa de señal de nuestra sinceridad y de nuestro afecto puro en Dios, que es poderoso y grande, al notificaros aun aquello que es de poca importancia; ¿con cuánto mayor motivo tratándose de comunicaros lo que hace conmoverse de alegría a los púlpitos y ensancharse a los pechos, gracias a los advenimientos de la virtud y excelencia divinas y a las cualidades verdaderamente extraordinarias de su ser? Ello consiste en que Nos ya os teníamos comunicado lo que intentábamos sobre emprender una campaña contra la ciudad de Córdoba, capital de las ciudades infieles, asiento de guerreros famosos, abundante en bondades, comarca cuyo tiempo es anterior al conocimiento del Islam y una columna a la que no se hace caer al primer golpe; pues dentro de sus murallas encierra de notables del pueblo de la Cruz, a todo arraez bravo, a todo león impetuoso en el asalto, astuto y vigilante y cuyo carácter y cualidades para estar alerta y para la asechanza son cosa bien probada y conocida. Llamamos, en efecto, a los muslimes de las ciudades más lejanas, hicimos oir la trompeta de la guerra santa en las partes del reino y nos presentamos ante la gente. Dimos a la *harca* que los muslimes habían dejado tras de sí unida a los infieles de las comarcas y bandas, los aprestos que necesitaban, y derramamos las soldadas, los equipos y monturas de los hombres esforzados y bravos guerreros. Entonces se reunió la gente en el terrreno, tomaron todas sus municiones y fué celebrada revista militar en fiesta feliz. La llamada había comprendido a todos, al próximo y al

1) Omito algunas frases de pura alabanza a Dios.

lejano, de grado o por fuerza, y nos pusimos en marcha, y la virtud de Dios abarcando todo y la confianza en él entera y completa, y acampamos afueras de la capital, hasta que quedaron ultimados para la gente sus aprestos y cumplidas todas sus necesidades. Conculcamos las villas cristianas con las multitudes de aquéllos —Dios las acreciente y multiplique y otorgue el mayor extremo a que pueda aspirarse en la demanda de sus recompensas.—Al hacer un alto de la marcha en la villa de Casariche, encontramos al sultán D. Pedro que estaba esperando nuestro socorro y nuestra ayuda, queriendo sacar de los renuevos del Islam su porción de beneficio y demandando rasgar su religión con nuestro auxilio y esfuerzo. Se hallaba acampado al exterior de aquella villa y con él estaban los que habían permanecido bajo su autoridad y manteníose en su obediencia y unión. Nuestro encuentro con aquél fué en forma tal que llevó el consuelo a los ojos de los muslimes y dió fe del brillo y esplendor de nuestra nación religiosa, de suerte que huelga hacer toda representación, comentario o concepto sobre el particular; pues tanto él como los que le acompañaban vieron de ejércitos de Dios tal abundancia, que se quedaron absortos llegando a dudar de sí sus imaginaciones se hallaban o no en estado de vigilia, al contemplar aquellas muchedumbres que con su reunión cerraban la vista de la extensa llanura, aquellos bravos guerreros que disputaban a los leones la muerte, los escuadrones victoriosos, las banderas flotantes al viento, los pueblos congregados, los gritos de la profesión de fe que salían entre ambos horizontes, y los campamentos que ofrecían un aspecto superior a las exigencias de la vista. Entonces reconocieron lo que no habían calculado, y observaron el poder de Dios que interpretaron mal sus inteligencias; pues he aquí que Dios había acrecentado las tropas con gran aumento y multiplicación y había hecho cesar los defectos de aquello de que presenta excusas el que sufre y no se queja. Y a la mañana siguiente se dirigían las miradas para reconocer, y se alzaban los cuellos para observar, y se verificó la formación del centro y de los flancos y quedó el orden de la batalla tan perfecto que la vista no percibía en él defecto ni vicio alguno. Se vino a hacer campo a la distancia de una parasanga del río mayor (Guadalquivir) afueras de la ciudad—quiera Dios que se cumpla la promesa de su destrucción y tornarla a su fe jurada y su significación distintiva en el Islam y disipar las tinieblas de la infidelidad en los horizontes de ella por la doctrina muslímica y por sus luces.—Ya había avanzado de los defensores de la ciudad, un cuerpo de tropas protegido con mallas y muy numeroso que se apoyaba en los muros del puente más grande con una guardia descubierta que le tenía las espaldas, compuesta de arqueros y bravos soldados en número muy crecido.

Entonces corrió contra ellos la caballería ligera de los muslimes y los rechazaron y vencieron, los desbarataron y dispersaron, los destrozaron con los sables, hicieron que les visitase la muerte, les dejaron como mieses segadas y les hicieron gustar de fuerte insalubridad. De ellos dejaron echados por tierra una gran multitud, todo un pueblo infiel. Se apoderaron los muslimes de una parte de aquellos muros y en ella alzaron sus banderas flotantes y sobre ella dominaron sus firmes propósitos verdaderos. Los muslimes se precipitaron en el río nadando en su gran masa de agua y despreciando su vida en el sendero de Dios. Atacaron a sus defensores enemigos situados en su orilla opuesta y les derrotaron. Se colgaron a los primeros muros y montaron sobre ellos. Y si en ese dia hubiésemos sostenido firme el ataque, el éxito de las máquinas de batir y el buen orden de los peones, con seguridad hubiera sido tomada la ciudad quedando en nuestro dominio su gente y sus hijos. Mas la noche infiel protegió a los impios, aunque ya habían perecido muchos de ellos, y los muslimes hubieron de retirarse a sus campamentos, auxiliando Dios al viandante y al propósito victorioso.

A la mañana siguiente nos lanzamos al mar en el que habíamos puesto como navío nuestra firme resolución y en Dios la confianza segura para conseguir el deseo, y acampamos en la orilla más extrema de un modo tan fuerte y poderoso que las murallas de la ciudad estaban en vecino contacto con las cuerdas de las tiendas, y desde el interior de los campamentos alcanzaban a sus aduares los disparos de las flechas.

Entonces los defensores de la ciudad se mostraron ante las fortificaciones de las puertas, ofreciendo a buen precio el mercado de los golpes de lanza y de sable; mas se les tornaba en el contrato con la perdida y la ruina. Cuando aceleramos el combate, y teníamos ordenadas diversas embestidas para castigar a la ciudad de una manera ejemplar, sin que hubiésemos contado con el mayor o menor tiempo para hacerla cesar, hizo Dios que descendiese la lluvia cuyo tiempo estaba prescrito de antemano y se hizo igual por su diluvio el terreno alto con el bajo. Fué grande el esfuerzo con este motivo, y sobrevino el quedar arma al brazo y las manos con dificultad para luchar; el tener que permanecer ante ella y procurar su asfixia y enterrarla, durante cinco días en que sus murallas no se libraron de ser embestidas, ni sus puertas de repetidos asaltos. Los combatientes abrieron brecha en los parapetos. Y era esperada verdaderamente la conquista prometida. Se desinflaron entre sus gentes las heridas y su inutilidad manifiesta. Fueron malas para ellos la tarde y la mañana por el poder de Dios. A no haberlo impedido la lluvia, ciertamente que se hubiese cumplido la promesa y la conquista, y Dios después de aquélla, es el conquistador.

Los rostros se volvieron a destruir los cultivos, a hacer que dominase el fuego, a talar los árboles y a borrar los cimientos. Por causa de ella fué arruinada la comarca famosa entre las comarcas, quedaron sus sembrados que se balanceaban para servir de lección a las inteligencias. Nos retiramos de ella cuando ya la revestía la ruina por todos sus límites, cuando habían sido derribados de los caballos sus magnates infieles, cuando se había reiterado su humillación y despreciado como cosa vil, su poderío. Y a punto estuvo de ser conquistada por fuerza de armas, si Dios no hubiera puesto para ella la promesa de otro plazo. Y fueron muertos de los bravos guerreros de ella y de sus varones distinguidos, de aquellos que descendían al combate y al choque cuerpo a cuerpo, de de los que acometían por la tarde y por la mañana con bravura, un número tan crecido que su alta importancia es reconocida por los nombres de los muertos y su calidad distintiva es determinada por los varones ilustres de aquéllos. Una multitud de caballeros muslimes mostraron su ventaja en los campos de la lucha en términos casi comunes a todos ellos, así como para entregar el botín y en su habilidad para gobernar los caballos abandonados a rienda suelta en su carrera, que es la habilidad de los vencedores.

Se verificó el traslado del ejército, cuando ya se habían completado la felicidad y el agrado y era satisfactorio el resultado de la guerra santa, habiendo producido el espanto entre los infieles el poder que resplandecía y la superioridad que era atestiguada por las lanzas y los caballos. Los muslimes pisotearon los sembrados del camino por donde cabalgaban, y las mansiones en las cuales penetraron por la fuerza y saquearon, como occeanos cuya costa está muy distante, y las tierras laborables cuyos frutos estaban en toda su madurez y en las que hay que excusarse de caminar en ellas, las dejaron como montón de arena y las entregaron resueltamente al dominio del fuego.

Acamparon al exterior del castillo de Andújar que ya había amanecido como domicilio habitual de la perdición, sin población civil y como nido de aves de rapiña, y cuando observamos que su manejo era asunto difícil y que sus torres estaban llenas de guardias y vigías, fuimos avaros de las vidas que habrían de perecer antes que conquistarlo y destruimos sus plazas, realizamos algaras para talar y arrebatar todo lo que se hallaba en sus alfoces, pegamos fuego a sus depósitos y campiñas y echamos a tierra las copas de sus árboles. Y regresamos, por virtud de Dios, y los sables tintos en sangre y las recompensas para la otra vida acrecentadas. Habíamos seguido los rastros por los que habían caminado los reyes y no dejamos en ellos campo cultivado que no nos diese su fruto, ni ubre que no nos enviase su dulce donativo. Y la alabanza sea para Dios.

Os hacemos saber estas generosas acciones y altos favores divinos de cuyos análogos el tiempo distaba ya mucho al presente, por cuanto conocemos que ellos serán para Vos el más excelente regalo de amistad, y por lo que sabemos de vuestras buenas intenciones y nobles deseos. Pues Vos sóis la posteridad legítima de la guerra santa meritoria, del beneficio donado generosamente y de la promesa cumplida del auxilio. Y pedimos a Dios, que es alto, que transporte a vuestros caballeros de la convención de la guerra santa a prestar su esfuerzo en ayuda de esta nación laudable. Y en verdad que se unirá a Vos todo el Islam contra el culto de los ídolos, y será completo el favor divino sobre los hombres. Nuestro afecto hacia Vos bien sabéis que se acrecienta cada vez más en el transcurso de los días... Y la salvación sobre Vos.

§

Fragmentos de otra carta de Mohamed V al sultán de Fez Abdelaziz notificándole, entre otras cosas, las nuevas algaras y devastaciones que ha realizado al retirarse del sitio de Córdoba, por los términos de esta capital y de la de Jaén

Aparece como objeto principal de la carta de que doy los siguientes extractos, felicitar al sultán de Fez por haber triunfado de alguna de las frecuentes insurrecciones o rivalidades que conmovieron por aquel tiempo tanto al reino de Fez, como a los otros del occidente musulmán. Según era costumbre para tales acontecimientos entre los reyes amigos, Mohamed V anuncia a su referido colega que va con la carta, su famoso predicador Abulbarcat, hijo de Alhach, quien en su nombre, le reiterará su felicitación y a la vez le detallará las noticias que en su carta le transmite sobre sus operaciones contra los cristianos, siguientes al levantamiento de su real del cerco puesto a Córdoba.

Los fragmentos de esta carta de Mohamed, que pueden ofrecernos interés histórico, son los siguientes:

.....[1]) والى هذا وصل الله لمقامكم اسباب الظهور والاعتلا ، وعرفكم عوارف الالاء على أنولا ، فانّنا لما ورد علينا كتابكم البر الوفاده ، النجم الافاده ، الجامع بين الحسنى والزياده ، جالى غرّة الفتح الاعظم من ثنايا السعاده ، وواصف المنن المتتاحه وواضف النعم المعاده ، فوقفنا من رقه المنشور ، وبيانه المحشود المحشور ، لا بل اربه النحشور ، على تحف سنيه ، وامانى هنيه ، وقطاف تلتقط جنيه ، ضمنت سكون البلاد وقرارها ، وان الله قد اذهب الفتن واوارها ، واخمد نارها ، وضرح عن وجه الاسلام عارها ، وجمع الاهوا على من هوته السعاده بعد ان أجهدت اختيارها ، فاصبح التشتيت مجتمعا ، وجنح النجنح مرتفعا ، والتجبل المخالف خاشعا متصدعا ، واستوفت الطاعه ، وتبجحت النسمة والجماعه ، وارتفعت الشناعه ، وتمسكت البلاد المكرمة باذيال وليها لما رانه ، وعادت الاجياد العاطلة الى حليها بعد ما اندرت ، اجلنا جيد الاقلام في ملعب الهناء وميدانه ، لاول اوقات امكانه ، على بعد مكانه ، واجهدنا عبارة الكلام في اجلال هذا الصنع وتعظيم شانه ، واغرينا الثناء بشيم مجدكم في شرحه لنا وبيانه ، رايئا ان لا نكل ذلك الى اليراع ، ونفرد فيه بالاجماع ، وما يتعاطاه من منة الوراع ، وان نشدّ برده من المشافهة ازره ، ونعضد بمعين من اللسان امره ، فعيّنا من يفسر منه المجمل ، ويمهد القصد المعجل ، حتى يجمع بين اغراضه البر ، والعلق منه والسر ، ويقيم شتى الادلة على الوداد المستقر ، ووجهنا به في غرض الرسالة اليكم ، واخترنا لشرحه بين يديكم ، خطيب الوفود ، وبركة المشائخ في هذا المقام المحمود ، الشيخ الجليل ، الكبير الشهير الصالح الفاضل ، ابا البركات ابن الحاج وهو البطل الذي يعلم الاجادة في الميدان ، ولا يبصر بوظائف ذلك الشان ، ومرادنا منه ان يطيل ويطيب ، ويجيل في وصف محاسنكم اللسان الرطيب ،

1) Cód. 1825 (B) fol 153 v. y sigs., y 306, fol. 157-8, co.; muchos blancos y extensas lagunas en este último. Paso por alto las primeras partes de la carta, como en otras anteriores.

ويقرّر ما عندنا لمقامكم من التشيع الذي قام على الحب • المتوارث اساسه •
واطرد حكمه وانتج قياسه • وليجعل تلو مقصد الهنا • بمجلسكم الباهر السنا •
الصارف الى خبر الجهاد في سبيل الله والعنا • وجه التهمّم والاعتنا • على
مرّ الانا • ما تجدّد من الانباء • في جهاد الاعداء • وان كان رسولكم اعزه
الله قد شارك في السرى والسير • ويمن الطير • فلا سرف في الخير •
وهو انّنا لما انصرفنا عن منازلة قرطبة نظرا للجشود التي نفدت معدات
ازوادها • وشابت بهشيم العلة المستقلة مفارق بلادها • واشفاقا لفساد
اقواتها • بفوات اوقاتها • رحلنا عنها وقد انطوينا من اعفاء تلك الزرعوع •
الهائلة الفروع • على هم قمص • واسف للمضاجع مغص • اذ كان عادل
المطر بكفّ السنة النار عن المبالغة في التهابها • وحلاق هابها • ونفض
اغوارها • ونهاب شوارها • واذاعة اسرارها.....[1]) • فخففنا في سبيل الله
التعقيب غزو تلك الاقطار المخالفة • بمحق الصائفة • واذاية تلك الطائفة •
بكلوم المجاع الجائفة • خفوف لم يقنع فيه بالاستثابة • حرصا على استيصال
الطبابة • واعفينا الرجل من اتصال الكد • وقابلنا قبولهم على استصحابنا
فيها بالرد • واظللنا على قرطبة بمحلتنا ننتسف جبال النعم نسفا • ونعمّ
لارض زلزالا وخسفا • ونستقرّ في مواقع البذر اخراقا • ونخترق اجواها
المختلفة بحب الحصيد اختراقا • ونسلّط عليها من شرار النار امثال الجمال
الصفر مدت من الشواظ اعناقا • ونوسع القرى الواسعة قتلا واسترقاقا •
ونكبر على.....[2]) اكواس الحتوف دهاقا.....[1]) • وخضنا احشا الفرنتيرة
نعمّ اشتات النعم انتسافا • واقوات اهلها اتلافا • وامال سكانها اخلافا • وقد
بهتوا لسرعة الرجوع • ودهشوا لوقوع الجوع • وتسبيب تخريب الربوع •
فمن الممكن البعيد ان يتأتّى بعد عمرانها المعهود • وقد اصطلم الزرع
واجتثت العود • وصار الى العدم منها الوجود • ورأى من عزائم الاسلام
خوارق تشذّ عن نطاق العوائد • وعجائب يستريب فيها عين المشاهد •

1) Paso por alto algunas frases puramente retóricas, sin interés histórico, como asimismo otras de invocación a Dios o las consabidas de despedida al fin de la carta.
2) Espacio vacío en B como de una sola palabra.

اذ اشتمل هذا انعام ، المتعرف فيه من الله الانعام ، على غرات اربع دمّرت فيها القواعد الشهيرة تدميرا ، وعلا فوق مراقيها الاذان عويرا جهيرا ، وكراسي الملك تضييقا كبيرا ، واذيقت وبالا مبير ، ورباح الادالة ان شاء الله تستنكف هبوبا ، وباسا مشبوبا ، والثقة بالله لا نذخر مطلوبا ، وحظا مجلوبا ، والعزة لله قد ملات نفوسا مومنة وقلوبا ، والله المسول ان يوزع شكر هذه النعم التي انقلبت الاكتد ....[1]) ، وقطعنا في بحبوحة تلك العمالة المستبحرة تلك العمارة والفلح ، المغنى عن العبارة والشرح ، مراحل حتمنا بالتعريج على حرب جيان حربها ، فقللنا رشانية غربها ، وجددنا كربها ، واستوعبنا خرمها وحربها ، ونظمنا البلاد في سلك البلا ، وحققنا في انجادها واغوارها رغائب الاستيلا ، فلم نترك بها ملقط طير ، فضلا عن معلف عير ، ولا اسارنا نقلها المحروب بالالة خير ، وقفلنا وقد تركنا بلاد النصارى التي فيها لجيادنا المدد ، والعدة والعدد ، وفيها الخصام واللدد ، قد لبست الحديد حربها ، وسلكت الى النخلا النجلا طريقا ، ولم نترك بها مضغة تخالط ريقا ، ولا نعمة تصول من الفريق فريقا ، وما كانت تلك النعم لولا ان الله اعان من عنصره الذار والهوا بمجنود كونه الواسع ، ومدركة البعيد الشاسع ....[1])

Y a esto—Dios haga duraderas a favor de vuestro Estado las causas del predominio y de la elevación en dignidad y os conceda de un modo continuo los favores de su gracia—; cuando llegó a nuestro poder vuestra carta, sinceramente enviada, colmada de utilidad, juntando en sí el placer del paraíso y el de ver a Dios cara a cara, mostrando la nueva luna de la conquista más importante por los puertos de la felicidad, describiendo los beneficios acordados y lanzando los favores repetidos, conocimos por su pergamino desplegado y por su dirección conjuntamente unida, así como por su objeto, las cosas más preciosas, los deseos más gratos y los frutos recogidos para el auxilio, los cuales son prenda de garantía para la tranquilidad de las ciudades y para su estabilidad. Sí, Dios ha alejado, en verdad, las luchas interiores y su ardor,

1) Paso por alto algunas frases sin interés manifiesto.

apagado su fuego, alejado de la faz del Islam el aprobio y conformado los deseos en aquél a quien deseaba la fortuna, después que ella trabajó con empeño su predilección. Pues la desunión amaneció convertida en acuerdo, se inclinó el ala remontada en alto, la montaña rebelde fué abatida y quebrada, fué completa la obediencia, se regocijaron la ley y la multitud, cesó la villanía, las nobles ciudades se agarraron a la cola del manto de su jefe cuando le vieron, y los nobles corceles desprovistos de todo arreo, volvieron a su ornamento después de haberlo rehusado.'

Hemos hecho que den vueltas los excelentes corceles del estilo en el circo e hipódromo de la felicitación desde el primer instante que nos ha sido posible, dada la distancia de su lugar; hemos excitado con empeño la exposición del discurso en honrar y enaltecer ese favor de Dios y hemos invitado a elogiar los bellos sentimientos de vuestra Majestad en su manifestación y distinción para nosotros. Hemos creído conveniente no confiar todo a un simple cañutillo, ni a aquella donación que permite la posibilidad, sino que más bien hemos fortificado su debilidad con la ayuda de la sabiduría y lo hemos asistido con el auxilio del lenguaje. Pues hemos designado a quien será intérprete de su totalidad y cumplirá con prontitud y facilidad el objeto deseado, hasta el extremo de hacer ver la concordancia de los propósitos de la sinceridad y todo lo pertinente a ella con el pensamiento íntimo, y de confirmar las diversas pruebas de un afecto perenne. Y despachamos con ésta, a fin de que os la ofrezca como misiva a Vos, y elegimos para que la comente en vuestra presencia, al predicador mensajero, bendición de los jeques en este estado digno de alabanza, al jeque excelente, grande, célebre, sincero y virtuoso Abulbarcât, hijo de Alhâch, el héroe cuyos torneos en el certamen son bien conocidos y no fué visto semejante en tales funciones. Y nuestra voluntad es que la lengua fresca sea larga, buena y excelente en la descripción de vuestras virtudes, y confírme lo que hacia vuestro Estado se encierra en Nos, de adhesión afectuosa cuyos fundamentos se levantan sobre el amor hereditario, la fecundó el juicio y la produjo el razonamiento.

Seguramente le hará dilatar el propósito de cumplir la felicitación en vuestra corte, de brillante grandeza, la que torna hacia la información y empeño sobre la guerra santa en el sendero de Dios la faz de la preocupación y del celoso cuidado al través de los tiempos, todo aquello que de nuevo expondrá acerca de la lucha con los enemigos. Vuestro embajador se ha asociado al viaje y al vuelo feliz y ciertamente abundante en bien.

Ello es que Nos al retirarnos del cerco de Córdoba mirando por las

tropas que habían consumido sus municiones y quedado fraccionadas por la excusa de no tener su provisión necesaria a lo cual obligaban las separaciones de sus ciudades, y temiendo que se corrompiesen sus víveres con el transcurso de su tiempo, nos pusimos en marcha desde aquella ciudad; pues ya nos impidió asolar por completo aquellas mieses esparcidas el tener que preocuparnos de las camisas y de que nos afligiesen los lechos del cólico; como quiera que la lluvia vino a impedir que la lengua del fuego llegase a incendiarla, a arrasarla, a explorar sus fondos bajos, a arrebatar sus ornamentos y a descubrir sus cosas íntimas.

Entonces anduvimos ligeros en el sendero de Dios, para volver a emprender incursiones por esas comarcas enemigas en el tiempo del riguroso estío, y hacer sufrir las heridas del hambre intenso a esas bandas, con tal ligereza que no sería bastante a satisfacer la reclamación de la recompensa, y con el vivo deseo de desarraigar sus fajas de tierra. Dispensamos a los peones de continuar la fatiga y aceptamos su agrado en acompañarnos en aquélla para volver al ataque. Nos detuvimos cerca de Córdoba con nuestro campo, a fin de arrasar por completo los montes de los beneficios, extender de un modo general a su tierra los terremotos y hundimientos, para abrasar los surcos de sus sementeras, incendiar sus diversos valles con el grano de sus mieses, entregarla al dominio de las chispas del fuego, de suerte que sus espigas ardientes vengan a ser imagen de la belleza del oro; para extender la muerte y el cautiverio por sus dilatadas alquerías, y hacer que circulasen de improviso entre sus moradores las copas de la perdición completamente llenas.

Penetramos en las entrañas de la frontera, para hacer general el arrasamiento de todos sus beneficios, la pérdida de las provisiones a sus gentes y el desvanecimiento de las esperanzas a sus moradores. Se admiraron del rápido retorno y quedaron asombrados de que sobreviniese el hambre y la devastación de las colinas. Porque es de los posibles remotos que recupere su florecimiento anterior; pues ya han sido arrancadas las sementeras y desarraigados los árboles, toda existencia ha venido a faltar en ella y ha visto los destellos de las firmes resoluciones del Islam escapando de los cintos que ordinariamente le ceñían, y las maravillas de que se ponía en duda la evidencia; puesto que este año, muy señalado por los beneficios divinos concedidos en él, ha comprendido cuatro expediciones en las cuales han sido destruídas enteramente famosas capitales, sobre sus torres fué elevada poderosa y públicamente la voz llamando a la oración, la sede del reino fué puesta en grave aprieto y hubo de gustar el tormento de la ruina. Los vientos de la victoria, si quiere Dios, comenzarán a soplar con fuerza e ímpetu brillantes. Y

la confianza en Dios, la cual no nos dispensamos de solicitar y de aportar su buen éxito, y el poder es de Dios que ha llenado ya las almas y los corazones creyentes, y Dios es demandado para que inspire la acción de gracias por esos beneficios, tantos que abruman con su peso las espaldas.

Invertimos en el interior de aquellos términos florecientes en población y agricultura, tanto que huelgan su referencia y mención, algunas jornadas que empleamos en completar la destrucción de Jaén, hicimos huir a sus gentes de la parte occidental, renovamos su aflicción, la combatimos y arrasamos completamente, pusimos las villas en el collar de la ruina, excitamos a los caballos vencedores en sus ataques y algaras contra aquélla. No dejamos en los referidos distritos ni un cebadero de pájaros y mucho menos saco de forraje de las bestias. No fué un bien para su desierto destruído nuestra servidumbre.

Nos trasladamos, habiendo dejado las villas de los cristianos, en las que existían recursos, aprestos y tropas para combatirnos, disputas y luchas, cuando ya se habían revestido del hierro ardiente y caminado hacia la soledad de los emigrantes. No fué abandonado en ellas trozo alguno masticable, ni objeto de algún valor que no fuese repartido entre las tropas. No hubieran tenido lugar esos favores, si Dios no hubiese asistido en su elemento al fuego y al aire con los ejércitos de su ser infinito y de su inteligencia que comprende hasta lo más distante y lejano.

§

Mohámed V notifica al sultán de Túnez Abuishac todas las conquistas y victorias antes mencionadas

Mohamed V comunicó también en extensa carta de que doy aquí su mayor parte y más sustancial, a su colega de Túnez, que a la sazón era, según se menciona en la carta, el nombrado Abuishac, hijo del califa Abuyahya Abubequer, hijo del sultán Abuzacaría, hijo del sultán Abuishac, hijo del sultán Almostansir billá Abuabdala, hijo de Abuzacaría, hijo de Abdelgüáhid, hijo de Abucháfar.

Aunque la carta en cuestión aparece sin fecha en el códice 1825 del Escorial, es indudable que hubo de ser escrita tan pronto como regresó

Mohamed de su campaña contra Córdoba en 1368 y antes de la que tuvo por objeto la reconquista de Algeciras, puesto que de esta última victoria no se hace mención en ella.

Por lo demás, en la nueva carta siguiente son referidos todos los hechos de armas de Mohámed V y su ejército, de que vengo haciendo mención en el presente artículo, hasta el cerco de Córdoba y la asolación de su campiña, en el mismo orden e idéntica sucesión y con más riqueza de detalles, aunque en el tono altamente retórico, con que fueron expuestos y comunicados en la carta al Señor de la Meca y en las sucesivas al sultán de Fez Abdelaziz, las cuales llevo dadas antes de ésta. Dice Abenaljatib:

وكتبت لصاحب تونس بمجموع هذه الفتوح عن السلطان رضي الله عنه وقد اهدى خيلا عتاقا واصنافا من الرقيق والفتيان وغير ذلك صحبة الرسول الفقيه ابي الحسن بن البنا وبتاريخ اليوم الثالث من شهر ربيع الاخر من عام سبعين وسبعماية[1]).

.....والى هذا اعلى الله معارج قدركم..... فانه وصلنا كتابكم.....[2]) وان تشوفتم الى احوال الراهنه ، واسباب الكفر الوالية وبحمد الله الوامنه ، فنحن نطرفكم بطرفها ، ونطالعكم على سبيل الاخبار بصرفها ، وهو اننا كما اعادنا الله من التمحيص ، الى مثابة التخصيص ، من بعد المرام العويص ، كحلنا بتوفيق الله بصر البصيره ، ووقفنا على سبيله مساعي الحياة القصيره ، ورأينا كما نقل الينا ، وكرر من قبلنا وعلينا ، ان الدنيا وان غرّ الغرور ، واقام على سرر الغفلة السرور ، فلم ينفع الحضور على احداث الزمان والمرور ، جسر يعبر ، ومتاع لا يغبط من حيي به ولا يحبر ، انما هو خير فيه يخبر ، وان الاعمار احلام ، وان الناس نيام ،.....[3]) فجعلنا العدل في الامور ملاكا ، والتعقّد للثغور مستواكا ، .....[3]) واقرضنا الله قرضا ، واوسعنا مدونة الجيش عرضا ، وفرضنا انصافه مع الاهلّة فرضا ، واستند كامن التوكّل على الله الغني الحميد الى ظل لوا ، ونبذنا الى

1) Cód. 1825 (B), fol. 44 v. y sigs. y 506 (C) fol. 83 v. 2) Paso por alto largos fragmentos sin interés, de salutación y agradecimiento por la carta y regalos que le ha enviado. 3) Paso por alto algunas otras frases puramente retóricas y con lagunas en el texto de B.

الطاغية عهده على سوا ، وقلنا ربنا انت العزيز وكل جبار لعزّك ذليل ، وحزبك هو الكثير وما سواه بقليل ، انت الكافي ، ووعدك الوعد الوافي ، فافض علينا مدارع الصابرين ، واكتبنا من الفائزين بحظوظ رضاك الظافرين ، فتحرّكنا اولى الحركات ، وفاتحة مصحف البركات ، في خلف من الحشود ، واقتصار على من بحضرتنا من العساكر المظفرة والجنود ، الى حصن اشر السامي المطل ، وركاب العدو الضال المظل ، ويهوى نفثات الصلّ على امتناعه وارتفاعه ، وسمر يفاعه ، وما بزل العدو فيه استداده ، وتوفير اسلحة وازواده ، وانتخاب انجاده ، فصلينا بنفسنا تارة وزاحمنا عليه الشهدا نصابر اواره ، ونلقى بالجوارح العزيزة سهامه الملومة واحجاره ، حتى فرغنا بحول الله من لا حول ولا قوّة الا به ابراجه المنيعة واسواره ، وكففنا عن العباد والبلاد اضراره ، بعد ان اضفنا اليه حصن السهلة جاره ، ورحلنا عنه بعد ان سحبناه رابطة وحاميه ، واوسعناه ازواد ناميه ، وعملنا بيدنا في رم ما ثلم القتال ، وبقر من بطون مسايفة الرجال ،.....[1]) وقد كنّا اعرينا الجهة الغربية من المسلمين مدينة برعة التي سدت بين القاعدتين رندة ومالقة الطريق ، والبست ذل الفراق ذلك كل الفريق ، ومنعتهما ان يسيغا للريق ، فلا سبيل الى الالمام لطيْف المنام في الاحلام ، ولا رسالة الا في اجنحة هدى الحمام ، فيسّر الله فتحها ، وعجّل منحها ، بعد حرب اثبت فيها النحور ، وتزينت الحور ، وتبع هذه الام بنات شهيره ، وبقع للزرع والضرع خيره ، فشفى الثغر من بوسه ، وتهلّل وجه الاسلام بتلك الناحية بعد عبوسه ، ثم أعملنا الحركة الى مدينة اطريرة على بعد المدا ، وتقلقلها في بلاد العدا ، واقتحام هول البلا وغول الردا ، مدينة بنتها حمص فاوسعت الدار ، واغلت الشوار ، وراعت الاستكثار ، وبسطت الاعتمار ، رجح الينا قصدها على البعد ، والطريق الجعد ، ما اسفت به المسلمين من استيصال طايفة من اسرائهم حرّوا بها امين ، وبظايرها المشوم متيمّنين ،

1) Omito algunas frases sin interés.

قد انهكهم الاعتقال ، والقيود الثقال ، واصرعهم الاسار ، وحللهم الانكسار ، فجدّلوهم في مصرع واحد ، وتركوهم عبرة للراى وللمشاهد ، واهدوا بوقيعتهم الى الاسلام ثكل الواجد ، وثرة الماجد ، فكبسناها كبسا ، وفجاناها بالهام من لا يضل ولا ينسى ، فصبّحتها الخيل ، ثم تلاحق الرجل كما جنّ اللّيل ، وحاق بها الويل ، فابيح منها الذمار ، واخذها الدمار ، ومحقت من مصانعها البيض الاهلة وخسفت الاقمار ، وسبيت من ذماء اهلها الضلوع الحرار ، وسلطت على هياكلها النار ، واستولى على الالاف العديدة من سبيها الاسار ، وانتهى الى اشبيلية الثكلى المعار ، فجلل وجوه من بها من وجوه كبار النصرانية الصغار ، واستولت الايدى على ما لا يسعه الوصف ولا تعادّ الاوقار ، وعدنا والارض تموج سبيا ، لم تترك بعبرين شبلا ولا بوحرة ظبيا ، والعقائل حسرى ، والعيون يبهرها الصنع الاسرى ، ولم يكن الا ان نفلت الانفال ، ووسمت بالارضاح الاغفال ، وتميّزت الهوادي والاكفال ، وكان الى غزو مدينة جيان الاحتفال ، قد ناء اليها الجرد تلاعب الظلال نشاطا ، والابطال تقتحم الاخطار رضى بما عند الله واغتباطا ، والمهنّدة الدلق تسبق الى الرقاب استلالا واختراطا ، والردّينية السمر تشترط حياتها النفوس اشتراطا ، واستكثرنا من عدد القتال احتياطا ، وارحنا العلل عمّن اراد جهادا منجيا غباره من نار جهنم ورياطا ، وناديناالجهاد الجهاد ، يا امّة النبي الهادي الجنّة تحت ظلال السيوف الحداد ، فهزّ الى الله كل عامر وغامر ، واثمر الجم من دعوة الحق الى امر آمر ، ... [1]) وكاثرت الرياض ازهار البطاح لونا وعدّا ، وسدّت الحشود مسالك الطرق العريضة سدّا ، ومدّ بحرها الزاخر مدّا ، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حدّا ، وهذه المدينة هي الام الولود ، والجنّة التي في النار لسكانها الخلود ، وكرسي الملك ، وبجنبته الوسطى من ذلك السلك ، بات بالمزايا العديدة وبجحت ، وعند الوزان بغيرها من امّات البلاد رجحت ، غاب الاسود ، وجحر الحيّات السود ، ومنصب التماثيل المايلة ، ومعلن النواقيس

1) Paso por alto algunas frases por los motivos anteriormente señalados.

الضايله ، وادنينا اليها المراحل ، وعينّا ببحار المحلّات المستغلّات منها على الساحل ، ولما اكتبسنا جوارها ، وكدنا نلتمج نارها ، تحرّكنا ووشاح الافق المرقوم بزهر النجوم قد دار دائره ، والّيل من حوف الصباح قد شابت غدائره ، والنسر يرفرف باليمن طائره ، والسماك الرماح يثار بعز الاسلام ثائره ،.....[1]) ولما فشا مرّ الصباح ، واهتزّت اعطاف الرايات التحيّات مبشرات الرياح ، اطللنا عليها اطلال الاسود على الفرائس ، والفحول على العرائس ،.....[1]) فنزلنا بساحتها العريضة المتون ، نزول الغيث الهتون ، وتيّمنا من فحصها الافيح بسورة التين والزيتون ، متبرئة من امان الرحمن للبلد المفتون ، واعجلنا الناس بحمية نفوسهم النفيسه ، وسجيّة شجاعتهم البئيسه ، عن ان نبرى للقتال المقاعد ، ويدنى باسماع شهير النفير منهم الاباعد ، وقبل ان يلتقى الخديم بالمخدوم ، ويرفع المنجنيق ركعتي القدوم ، فدافعوا من اصحر اليهم من الفرسان ، وسبق الى حومة الميدان ، حتى اجحروهم في البلد وسلبوهم لباس الجلد ، في موقف يذهل الوالد عن الولد ، صابت السهام فيه غماما ، وطارت كاسراب الحمام تهدى حماما ، واضحت القنا قضدا ، بعد ان كانت شهابا رصدا ، وماج بحر القتام بامواج النصول ، واخذ الارض الرجبان لزلزال الصياح الموصول ، فلا ترى الى شهيدا تظلل مصرعه الحور ، وصريعا تقذف به الى الساحل ذلك البحور ، وتباهى لها الوجوه الوجيهة عند الله والنحور ،.....[1]) فاقتحم الربض الاعظم لحينه واظهر الله لعيون المبصرين والمستبصرين عزة دينه ، وهدا الشيطان من خدينه ، وبهت الكفار وخذلوا ، وكل مصرع جدّلوا ، ثم دخل البلد بعده غلابا ، وجلل قتلا واستلابا ، فلا تسل الا الظباء والاسل عن قيام ساعته ، وهول يومها وشناعته ، وتخريب المبائت والمبانى ، وعيى الايدى من خزائن تلك المغانى ،.....[1]) اقمنا بها اياما نعقر الاشجار ، ونستاصل بالتخريب الوجار ، ولسان الانتقام ، من عبدة الاصنام ، ينادى يا لثارات

1) Paso por alto algunas otras frases puramente retóricas y con lagunas en el texto de B. Falta todo el pasaje en C.

الاسكندرية تسبيبا من الفخار ، ورعيا لحق الجار ، وقفلنا واجنحة الرايات برياح العنايات خافقه ، واوفاق التوفيق الناشية من خطوط الطريق واسواق العزّ بالله نافقه ، وحملاء الرفق مصاحبة والحمد لله مرافقه ،.....[1]) وقصدنا مدينة أبدة وهي ثانية الجناحين ، وكبرى الاختين ، ومساهمة جيان في ذي الحين ، مدينة اخذت عريض الفضا الاخرق ، وتمشت فيه ارباضها تمشي الكتابة الجامحة في المحرق ، المشتملة على المتاجر والمكاسب ، والفلج المعيي عده على الحاسب ، وكورة العديد اللّاسب ، المتعددة اليعاسب ، فاناخ العفا بربوعها العامره ، ودارت عقار كووس عقار الحتوف ، ببنان السيوف ، على متديرها المعاقره ، وصبّحتها طلائع الفاقره ، واغريت ببطون اسوارها عوج المعاون الماقره ، ودخلت مدينتها عنوة السيف ، في اسرع من خطرة الطيف ، ولا تسل عن الكيف ، فلم يبلغ العفاء من مدينة حافله ، وعقيلة في خلل المحاسن رافله ، ما بلغ من هذه البائسة التي سجدت لالهة النار ابراجها وضفت على اعطافها ملابس الخذلان ، واقفر من كنائسها كناس الغزلان ، ثم تاهّبنا لغزو امّ القرى الكافره ، وخزائن الموامن الوافره ، ورنّة الشهرة السافره ، والانباء المسافره ، قرطبة وما ادريك ماهيه ، ذات الارجاء الحالية الكاسيه ، والاطواد الراسخة الراسيه ، والمباني المباهيه ، والزهراء الزاهيه ، والمحاسن غير المتناهيه ، حيث هالة بدر السماء قد استدارت من السور المشيد البناء دارا ، ونهر المجرة من نهرها الفياض المسلول حسامه من غمد قد لصق بها جارا ، وفلك الدولاب المعتدل الانقلاب قد استقام مرارا ، ورجع الحنين اشتياقا الى الحبيب الاول واذكارا ،.....[1]) فاعملنا اليها السرى والسير ، وقد ناء اليها الخيل قد عقد في نواصيها الخير ، ولما وقفنا بظاهرها المبهت المعجب ، واصطففنا بخارجها المنبت العجب ، والقلوب تلتمس الاعانة من منعم مجزل ، وتستنزل المليكة من منجد منزل ، والركايب واقفة من خلفنا بمعزل ، نتناشد

1) Paso por alto otras frases de efecto puramente retórico.

في معاهد الاسلام .. فما انفل من ذكرى حبيب ومنزل ، برز من حاميتها الحاميه ، ووقود النار الحاميه ، وبقية السيف الوافرة على الحصاد الناميه ، قطع الغمائم الهاميه ، وامواج البحار الطاميه ، واستجنت بظلال ابطال المجال ، أعداد الرجال ، الناشبة والرامية ، وتصدى للنزال ، من صناديدها الصهب السبيل ، امثال الهضاب الراسيه ، تحتها جنن السوابغ الداسيه ، وقوائمها المقادة للصلبان بوم بوسها بنفوسهم المواسيه ، وخنازيرها التي عدتّها عن قبول حجج الله ورسوله ستور الظلم الغاشية وصخور القلوب القاسيه ، فكان بين الفريقين امام جسرها الذي فرق البحر ، وحلى بالجبنه ، والآلي زينه ، منها البحر ، حرب لم ينسج على منوالها ، ولا انت الليالي الحبلاء بمثل نعتة اهوالها ..[1] اعلم فيه البطل الباسل ، وتورد الابيض الباتر ، وتأرّد الاسمر العامل ، ودوم النجلة المتكامل ، وانبعث من حدب المنيه ، الى غدف الرميه ، النفس النافل ، وزويت للموسلات السهام المراسل ، ثم افضى امر الرماح الى التشاجر والارتبال ، وتشعبت الالسنّة بالدروع تشعّث السماك في السبك ، ثم اختلط المرعى بالهمل ، وعول الردى عن العمل ، وعادت السيوف من فوق المفارق تتجانا ، بعد ان شقّت عذر الشرائع خلجانا ، واتحذت جداول الدروع فصارت بحرا ، وكان التعانق فلا ترى الا بحرا بملازم بحرا ، عنق وداع ، وموقف شمل ذي الصداع ، واجابة منادٍ الى فراق الابد وداع ، واستكشفت مناك الصبر الانفس الشعاعة ثم امد السيل ذلل العباب ، وصقل الاستبصار الالباب ، واستخلص النعوم صفوة اللباب ، وقل نسلن الصبر ادخلوا عليهم الباب ، فاصبحت طوائف حصائد مناجل الشفار ، فمفارقهم قد رضيت حرمانها بالاحفار ، وروسهم محطوطة في غير مقام الاستغفار ، وعلت الرايات من فوق تلل الابراج المستطرفة الاسوار ، ورفرف على المدينة جناح البوار ، لولا الانتهاء الى الحد والمقدار ، والوقوف عند انتفاء سرّ الاقدار ، ثم

1) Omito otras frases análogas a las precedentes de efecto meramente retórico.

عبرنا نهرها ، وسدّدنا بايدي الله قهرها ، وضيقنا حصرها ، وادرنا بلالي القباب البيض حصرها ، واقمنا بها ايام ، تحوم عقبان البنود على فريستها حياما ، وترمي الارواح بموارها ، وسلطت النار على اقطارها ، فلولا عوائق المطر ، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر ، فرايتنا لن نروضها بالاجتثاث والانتساف ، وتوالى على زروعها وربوعها كرات رياح الاعتساف ، حتى بتهيّا للاسلام نول طعمتها ، وبتهيّا بفضل الله ارث نعمتها ، ثم كانت عن موقفها الافاضة من بعد النحور ، وقذف حجارها الدماء على العدو المذعور ، وتدافعت خلفنا السبقات المتسعات تدافع امواج البحور ، وبعد ان انحجنا على جدّاتها المصحره ، وكرومها المستبحره ، النحاح العريم ، وعوّضناها المنظر النزيه من المنظر الكريم ، وطاف عليها طايف من ربّها فاصبحت كالصريم ، واغرينا خيلان النار بحمم التحميم ، وراكسنا في اجواف اجوائها غمائم الدخان ، وارسلنا ريح الغارات فما تذر من شي اتت عليه الا جعلته كالرميم ، واستقبلنا الوادي بهول مدا ، ويروع سيله الصقيل خدا ، يسّره الله من بعد الاعوان وانطلقت على الفرصه ، بتلل الغرصه ، ايدي الانتهاز ، وسألنا من سائله اسد بن الفرات فاغنى بوجيحان النجواز ، فعم الاكتساح والاستباح جميع الاجواز ، فاذيل المصون ، وانتهبت العرى وهدّت الحصون ، واجتثت الاصول وحطمت الغصون ..... [1]) وعدنا والبنود لا يعرف اللفّ نشرها ، والوجوه المجاهدة لا يخالط التقطب بشرها ، والايدي بالعروة الوثقى معتلقه ، والالسن بشكر الله منطلقه ، والسيوف في مضاجع قلقه ، وسرابيل الدروع خلقه ، والجياد من ردّ الى الاواري ردّا العواري خلقه ، وبعبرات الغيط المكظوم مختنقه ، تنظر الينا نظرا العاتب ، وتعود من ميادين المراح ، والاختيال تحت حلل عود السلاح ، عود الصبيان الى المكاتب ، والطفل بلسان العز هادر ، والعوم الى منادي العود الحميد مبادر ، ووجود نوع الرماح ، من بعد ذلك الكفاح ، نادر ، والمقاسم ترتّب

1) Omito otras frases análogas a las precedentes, de efecto meramente retórico.

بين يدي من السبى النوادر ، ووارد مناقل الاجور ، غير المخلا ولا المهجور ، صادر ، ومناظر الفصل الاتي ، عقب اخيه الشاتي ، عن المطلوب الاتي ، مصادر ، والله على تيسير الصعاب ، وتخويل المنن الرغاب ، قادر ،.....[1]) وهو ان ملك الروم لاطفنا بجملة من الحصون كانت من ملكة الاسلام قد غصبت ، والتماثيل في بيوت الله بها قد نصبت ، ادالها الله بمحاولتنا الطيب من الخبيث ، والتوحيد من التثليث ، وعاد اليها الاسلام عودة الاب الغايب ، الى البنات المحاريب ، يسلي عن سوئها ، ويمسح الرقة عن جفونها ، وهي للروم خطّة خسف قلّما ارتكبوها فيما يعلم من الحدود ، ونادرة من نوادر الوجود ، والى الله علينا وعليكم عوارف الجود ، وجعلنا في محاريب الشكر من الركع السجود ، عرّفنا بمجملات امور تحتها تفسير ، وبمن من الله وتيسير ، اذ استيفاء التجزئيات عسير ، لنسركم بما منح الله دينكم ، وتتوج بعز الملة الحنيفية جبينكم ،.....[2])

«Y escribí al soberano de Túnez de parte del sultán—Dios se apiade de él—notificándole todas estas conquistas. Y el sultán hizo que llevase juntamente caballos de buena raza y varios esclavos y jóvenes siervos como presente, el embajador alfaquí Abulhásan ben Albana. Y esto fué en el tercero día del mes de Rabí II del año 770 (15 de Noviembre de 1368).»

«Y a esto—Dios eleve los escalones de vuestro poder;—nos llegó vuestra carta. Si Vos deseáis conocer las circunstancias fijas y las condiciones continuadas y, con alabanza de Dios, débiles de los infieles, Nos os vamos a brindar las novedades respecto de éstos. Y ello es que Nos cuando Dios nos volvió de su prueba dolorosa al lugar de la afección especial después de muy difíciles deseos, hicimos que fuese, con la conformidad de Dios, más brillante nuestra vista y acomodamos a su sendero los esfuerzos de la vida corta. Y juzgamos, según lo que nos ha sido referido y por lo que nos ha sido reiterado favorable y desfavorable, que este mundo, aunque engaña con sus ilusiones y mantiene la alegría sobre los lechos de la holganza, no por eso quita el atender a las

1) Suprimo las frases siguientes, de mera súplica y alabanza a Dios. 2) Dejo de consignar las últimas frases de la carta, de alabanza y despedida corriente al destinatario.

novedades de los tiempos y periodos, es un puente que hay que atravesar y un beneficio que no acaba de satisfacer y de contentar a quien vive en él. Unicamente existe en él un bien que debe ser notificado. Las vidas son sueños y los hombres unos durmientes. Y pusimos pie en el arreglo de los negocios y en atender a la fortificación de las fronteras. Realizamos un préstamo a la causa de Dios, hicimos un amplio reclutamiento del ejército y le pagamos la soldada con arreglo preciso a los meses lunares. La más íntima confianza se apoyó en Dios, el digno de ser cantado y alabado, sobre la protección de la bandera, y rompimos juntamente el tratado con el opresor infiel y dijimos: ¡Señor Nuestro! Tú eres el omnipotente. Todo ensoberbecido de su poder está sometido a tu omnipotencia. Tu partido es el numeroso y todo otro es bien pequeño. Tú eres bastante, tu promesa es, en verdad, la promesa cumplida. Revístenos ampliamente con las túnicas de los verdaderos resistentes en la lucha. Inscríbenos entre los que obtienen las victoriosas porciones de tu satisfacción!

Emprendimos la primera expedición, la que abría el libro de las bendiciones, con las tropas ligeras del reclutamiento y circunscripción de los cuerpos victoriosos y bandas residentes en nuestra capital, contra el castillo de Iznájar, la elevada torrecilla de observación y estribo del enemigo perdido en el error y falaz. Los soplos de los esputos del áspid ventilaban lo inexpugnable e inaccesible del castillo y su colina morena y cuanto de aprestos había puesto en él el enemigo, de abundancia de armas y mantenimientos, y de bravos defensores escogidos. Entonces acercamos alguna vez nuestro espíritu al fuego y apretamos al castillo los testimonios verídicos, a fin de que pudiésemos soportar su ardor y lanzar con los miembros poderosos sus flechas y sus piedras, hasta que con el poder de Dios, fuera del cual no existe fuerza ni potencia alguna, hicimos que fuesen evacuadas las torres inexpugnables y sus muros, y evitar su daño a los siervos y a los pueblos de Dios, después que juntamos a aquél su vecino castillo de Alsahla.

Entonces nos retiramos de aquel castillo, luego de haber proveído a su defensa y guarnición y al acrecentamiento de sus provisiones y de trabajar por nuestra mano en la reparación de las brechas producidas por el combate y de las aberturas practicadas en el interior por los golpes de los sables de los peones. Y ya habíamos librado a la parte occidental de los muslimes de la ciudad de Priego, la cual cerraba el camino entre las dos capitales de Ronda y Málaga; pues la bajeza de la separación había cubierto a todos esos partidos e impedía a aquellas dos ciudades tragar fácilmente la saliva. Sin que hubiese medio de interpretar la visión fantástica de los ensueños, ni misiva que fuese dirigida a

no ser en alas de las palomas. Mas Dios facilitó prósperamente la conquista de aquélla y aceleró sus beneficios después que la lucha había en ella consolidado fuertemente el degüello y había sido decorada por la destrucción. Y siguieron a esa madre sus notables hijas (pueblos vecinos) y los campos de cereales y de pastos excelentes. Entonces la frontera quedó curada de su calamidad y sonrió la faz del Islam en esta región, después de haber presentado un aspecto severo.

Luego emprendimos la expedición a la ciudad de Utrera, a distancia del límite, a la cual conmovieron entre las ciudades la enemistad, la sorpresa del terror destructor y el espanto de la ruina; ciudad que edificaron los de Emesa, extendiendo sus moradas, enriqueciendo sus ornamentos y multiplicando y prolongando su cultura. Nos movió con preferencia a dirigirnos contra ella, no obstante la distancia y el duro camino, lo mucho que aquella afligió a los muslimes por haber exterminado a una banda de los cautivos de éstos que se consideraron libres en ella y estimaron como de buen augurio, su hospitalidad siniestra. Ya les habían agotado las fuerzas la ligadura y las pesadas cadenas, la cautividad les hacía caer desfallecidos y la aflicción les quebrantaba el corazón. Les tiraron por tierra en cierto campo de suplicio y les abandonaron para que sirviesen de experimentación a todo el que viese o presenciase. Con el acontecimiento de éstos, ofrecieron al Islam un presente rico de gracia y abundante de gloria. Caímos súbitamente sobre la ciudad y la sorprendimos siguiendo la inspiración de Aquel que no se desvía ni olvida. Vino de mañana sobre aquélla la caballería, después se juntó la infantería, como se oscurece la noche, y la rodeó por todas partes la adversidad. El pillaje se extendió por ella, fué presa de la ruina, de sus edificios blancos se desvanecieron las nuevas lunas y se eclipsaron los soles, quedaron cautivos los habitantes que pudieron salvar su vida, el fuego se hizo dueño de sus templos y la prisión cogió a un crecido número de miles de sus cautivos. Y llegaron a Sevilla las madres privadas de sus niños, y se generalizó la afrenta sobre los principales jefes cristianos que estaban en aquélla. Las manos se apoderaron de tanto botín que no es posible describirlo, ni enumerar sus fardos.

Nos volvimos, y la tierra ondeaba con la multitud de cautivos; no fué dejado leoncillo alguno en sus riberas, ni en gruta alguna gacelas. Y las esposas tristes, y a los ojos abrillantaba el favor divino de los cautivos. Y no hubo más que distribuir el botín, compensando con aumento las omisiones, y separar los presentes y porciones dobles.

Y fué la reunión de tropas de todas partes con destino a la campaña de Jaén. Ya se había levantado contra ésta la desnudez de los campos mofándose alegremente de las sombras de los árboles. Los héroes se

habían lanzado a los riesgos de la vida, satisfechos y contentos con el agrado de Dios. Las excelentes espadas que por sí solas salen de sus forros, avanzaban hacia los cuellos, y las morenas lanzas imponían las condiciones de vida a las personas.

Multiplicamos por precaución las unidades de combatientes salvando las excusas eximentes de aquellos que querían cumplir el precepto de la guerra santa el cual librase sus restos y espíritus del fuego del infierno, y gritamos: la guerra santa! la guerra santa! Oh nación del Profeta, del que conduce derechamente al Paraíso bajo las sombras de las espadas puntiagudas! Entonces se agitó hacia Dios toda comarca próspera por su cultura o inculta, y se obtuvo gran fruto de la reclamación justa del decreto ordenante, crecieron los jardines de flores de los vastos lechos de los torrentes en color y número, quedaron cerrados los senderos de los amplios caminos y se dilató el mar desbordante de aquellas multitudes, de suerte que no se encontrará otro semejante o parecido. Y aquella ciudad (Jaén) es población fecunda, un jardín que tiene para sus moradores el fuego eterno, sede del reino de cuyo collar siendo la perla central, se gloria de poseer muchos privilegios y se regocija, y puesta en la balanza con otras poblaciones, da el mayor peso en ser bosque de los bravos leones y antro de las serpientes negras, punto en que se alzan las efigies y lugar de publicidad de las campanas. Fuimos aproximando las jornadas hacia ella, contemplamos los mantenimientos junto a la orilla de los occéanos de sus estaciones y cuando rodeamos su vecindad y a punto estuvimos de percibir su fuego, nos pusimos en movimiento, cuando ya la faja del hemisferio recamada por las brillantes estrellas, daba su vuelta, a la noche se le blanquecían las trenzas negras de sus cabellos por el temor a la aurora, la constelación del águila extendía sus alas para volar con feliz presagio, y los hierros de las lanzas se agitaban soberbias por el poder del Islam.

Cuando se extendió el paso de la aurora y los vientos hicieron que los extremos de las banderas ondulasen como enviando saludos de buen augurio, caímos sobre aquella ciudad con la impetuosidad de los leones sobre las presas y de los machos sementales sobre las hembras. Descendimos en su plaza espaciosa y firme, como desciende formando ondulaciones la lluvia torrencial. Tuvimos como de feliz presagio el muro de viñas y olivares de su dilatada campiña, privados de la seguridad de Dios por ser de una ciudad rebelde a sus designios.

La gente llevada del ardor de sus almas generosas y de su natural bravo y valiente no nos dió tiempo de examinar las estancias para la lucha, ni de que se acercasen los más distantes de ellas al oir la voz pública de los clarines. Antes que se juntase el servidor con su señor

y las máquinas de batir hiciesen sus inclinaciones de avance, rechazaron a los jinetes que se habían mostrado contra ellos. Y avanzaron hasta el lugar dominante del campo de batalla, hasta encerrarles en la ciudad y arrebatarles las corazas de cuero en lucha tan violenta que a los padres hacía perder la memoria de sus hijos, y en la cual caían las flechas como una nube y volaban como bandas de palomas que seguían unas a otras. Las lanzas descubrían su blanco de ataque, después de haber sido llamas de observación, el mar de la polvareda era agitado por las ondas de las hojas de los sables y se estremecía de pavor la tierra por el retumbar de la compacta gritería. Solamente se veían mártires a cuyos yacimientos por tierra sombreaba la perdición, y otros arrojados por el suelo a los cuales vomitaban aquellos mares hacia la costa, y de ellos se orgullecían los rostros sin reverso ante Dios, y lo alto de los pechos. De seguida fué sorprendido el arrabal mayor, y Dios mostró a los ojos de los que miran y observan, el poder de su religión y calmó a Satanás respecto de sus camaradas. Los infieles quedáronse atónitos y privados de auxilio, y todos ellos fueron echados por tierra. Después fué entrada a rebato la ciudad y se extendieron por toda ella la matanza y el saqueo. Solamente las jóvenes doncellas y los niños olvidarán aquella hora de la ciudad, su terrible día, su humillación, la destrucción de sus viviendas y edificios. Las manos no tenían poder suficiente para coger todos los tesoros de aquellas moradas.

Permanecimos en esa ciudad unos días para talar los árboles y destruir las defensas, y las lenguas de la venganza sobre los adoradores de las estatuas gritaban: «Oh! Venganzas de Alejandría!», produciendo legítimo orgullo y haciendo honor a lo que se debe al enemigo. Nos trasladamos, y las alas de las banderas flotaban agitadas por los vientos de la divina providencia. Los cuadros de la conformidad llegados a su crecimiento, se acreditaban en las estaciones del camino y en los zocos del poder por Dios, llevando juntamente la asistencia divina y siendo en su compañía la alabanza del Todopoderoso. Y nos dirigimos a la ciudad de Úbeda, que es la segunda de las dos alas, la mayor de las dos hermanas y compartidora de su suerte con Jaén en este tiempo. Ciudad que ocupa una muy extensa planicie, en la cual se asientan sus arrabales como los escritos rápidos en un papel liso, y la cual comprende mercancías, provechos y terreno laborable imposibles de calcular. Región de numerosas abejas melíferas y abundante de perdices.

Mas la devastación hizo alto en los campamentos florecientes de ella, las copas del vino de la muerte circularon para sus moradas en los dedos de los sables, embriagando a aquéllos entre los cuales daban vueltas. La saludaron de madrugada los albores de la desgracia y las

sinuosidades de los instrumentos perforantes apetecieron las panzas de sus murallas. Su almedina fué tomada a viva fuerza por la espada que atravesó con más rapidez que aparece un espectro y sin olvidar su manera. No llegó la devastación de una ciudad populosa y principal que arrastrase la cola de sus bellos ornamentos, al grado extremo de esa capital esforzada cuyas torres se prosternaron ante el Dios del fuego, a cuyos flancos se apretaron las vestiduras del abandono de la providencia divina y en cuyas iglesias quedaron desiertas las grutas de refugio de las gacelas!

Después nos aprestamos para realizar una incursión contra la madre de las alquerías infieles y de los tesoros asegurados abundantes, la que es sonido de fama entre los viajeros y de buenas nuevas entre los caminantes, la ciudad de Córdoba. ¿De qué informarte? Es por su naturaleza, señora de comarcas adornadas y revestidas de montañas de suelo duro y firme, de construcciones que rivalizan en hermosura, de flores lindamente coloreadas y de bellezas inacabables; donde el halo de la luna llena del cielo gira alrededor de la muralla de fuerte construcción, y la corriente de la vía láctea de su río, el que se desborda como sable que se desliza suavemente de su funda, se une a aquella amigablemente, y las ruedas de sus norias equilibradas al girar, ya perduran tiempo a tiempo y repiten los tiernos gemidos, deseando y recordando al primer amado.

Emprendimos, pues, nuestro viaje de noche y día a Córdoba, hacia la cual se había adelantado ya la gente de caballería llevando anudada la felicidad en los tupés de sus monturas. Y cuando hicimos alto al exterior de aquélla, verdaderamente asombroso y admirable, y nos ordenamos en batalla en sus afueras de un plantío sorprendente, en tanto que ya los corazones aguardaban el auxilio de Aquél que es, en verdad, bienhechor y largamente dadivoso, y deseaban que descendiesen los ángeles del Auxiliador y Amparador, y puestas ya las recuas a nuestra retaguardia en un lugar descartado de la acción, comenzamos a recitar unos con otros, las fórmulas del credo musulmán. Mas no habíamos cesado de mencionar al Amado, al que hace descender el auxilio, cuando aparecieron de defensores de aquélla, de teas incendiarias, de abundantes restos de espada en actitud de realizar una crecida siega de las mieses, algunos cuerpos como nubes errantes y como olas henchidas de los occéanos. Bajo la sombra protectora de los bravos campeones quedaron a cubierto crecidos contingentes de peones y arqueros. Salieron a hacer frente en el campo de batalla, de los señores de aquélla (Córdoba), los alazanes semejantes a colinas firmes llevando por su parte inferior las protectoras cubiertas de malla, de sus jefes que ofrecieron en rescate de la cruz, para el día de su infortunio, sus almas generosas, y de sus puercos

a los cuales apartaron de aceptar las pruebas fidedignas de la verdad de Dios y de su Profeta los opacos velos del error y las rocas de los corazones endurecidos. Y hubo entre ambas partes, delante del puente de la ciudad que la separa como a un occéano y a cuyo río decora con la plata y perlas de su ornato, una batalla que nunca fué trabada de manera tan entretegida, ni las revueltas noches trajeron horrores semejantes, en la cual fué marcado el héroe esforzado, se enrojecieron las blancas espadas cortantes, se encorbaron las partes de las lanzas inmediatas al hierro y el vallado perduraba intacto. Las gentes con rapidez se hacian blanco de los proyectiles de la corcova de la muerte, y las flechas cortas se mostraban a los caballeros. Luego llegaron las lanzas a entrelazarse y mezclarse y a quedar sus puntas aprisionadas entre las cotas de malla, como los peces en las redes. Después se confundieron los jefes con los subordinados, quedaron descartadas de la obra las piedras gruesas y los sables volvieron a estar como coronas sobre los grupos, después que se desbordaron los estanques de los abrevaderos como bahías. Fueron agarrados los riachuelos que forman las cotas de mallas, y vinieron a ser un mar, y sobrevino la lucha cuerpo a cuerpo sin que se viese otra cosa que unos cuellos pegados a otros como en abrazo de despedida, al modo como se juntan los que estuvieron divididos y como el responder al que grita y llama a la separación eterna. Las almas afectuosas demandaron obtener el don de la resistencia. De seguida este torrente acudió en auxilio de aquellas ondas henchidas, la reflexión ilustró las inteligencias, recobró la firme resolución toda su pureza más acrisolada y exclamó la lengua de la resistencia: ¡Tomadles la puerta! Saludaron de mañana las hoces cortantes a aquellas bandas de mieses; pues sus cascos de hierro ya estaban satisfechos de ser pisoteados en tierra y sus cabezas quedaban humilladas sin otro remedio que demandar perdón.

Entonces fueron alzados los estandartes sobre aquellas torres limítrofes con las murallas, y las alas de la perdición se extendieran resonando sobre la ciudad, sino fuera que hay que conformarse con el límite y la medida impuestos por el destino. Después atravesamos su río y con el poder de Dios, la apretamos con violencia, estrechamos su cerco y la angustiamos haciendo que la rodeasen las perlas de las cúpulas blancas. Permanecimos en ella algunos días para que revoloteasen con deseo las aves de rapiña de las banderas sobre su presa y fuesen talados sus árboles corpulentos. Y el fuego se enseñoreó de sus comarcas y a no haber sido por las dificultades que ofreció la lluvia, seguramente hubiésemos alcanzado la conquista de esa morada solariega.

Ante esto juzgamos conveniente domar la ciudad por el estraga-

miento y tala de sus plantaciones, y procurando que sobre sus llanuras de cultivo y sus colinas se repitiesen sin cesar los ataques de los vientos asoladores, a fin de que se ablandase para el Islam el duro bocado de aquélla y le fuese facilitada su benéfica herencia por virtud de Dios.

Luego sobrevino el desbordamiento de su campo de batalla tras de los degüellos, cuando ya la sangre arrojó sus piedras contra el enemigo amedrentado, cuando a nuestra espalda se empujaban unos a otros los rebaños extendidos, como se empujan las olas de los mares, y después que insistimos todavía con terquedad firme en asolar sus dilatados huertos y sus cármenes extensos, haciéndola presentar un aspecto horrible, en lugar del bello que antes ofrecía. Una banda de su Señor había tornado al rededor de ella, que, en efecto, amaneció como un ser mutilado. Excitamos en los caballos del fuego el deseo del carbón ardiente y en las concavidades más profundas de los valles de aquélla hicimos que descargasen las nubes de la perdición. Enviamos los vientos de las algaras, los cuales no dejaron cosa alguna a la cual llegasen, a no ser como podrida. Se nos opuso el río cuya extensión infundía pavor, y cuya espada de filo pulimentado causaba espanto. Dios lo facilitó después de la privación, y las manos quedaron libres para aprovechar la ocasión del pillaje en aquel vergel. Pues preguntamos a su demandante Asad ben Alfarat y nos contestó mostrando el pasaje. Entonces se hicieron generales el pillaje y la destrucción de todos los alfoces. Fué objeto de vituperio lo reservado, y del pillaje las cosas preciosas. Fueron derribados los castillos, arrancados de raíz los árboles y quebradas las ramas.

Regresamos, y el repliegue de las banderas desconocía ya su desdoblamiento, las arrugas de los rostros de los guerreros de la fe no alteraban su aspecto alegre, las manos fuertemente adheridas a los objetos preciosos del despojo, sueltas las lenguas en agradecimiento a Dios, agitadas las espadas, pulidas las corazas de malla, los nobles corceles sofocados por volver desnudos a las cuadras, angustiados por los resoplidos de la cólera comprimida, nos miraban como mira el que reprocha, y tornaban de los hipódromos del cabalgar soberbio bajo los mantos habituales de las armas, como tornan los pequeñuelos a sus escuelas primarias. Y los tambores redoblaban por la lengua del poder, la firme resolución se ofrecía presta para gritar el retorno laudable, la diversa especie de las lanzas después de esa lucha, era extraordinaria y asombrosos los lotes de cautivos puestos delante en orden perfecto. Y el que descendió a los abrevaderos de las recompensas (divinas) no volvió de vacío, ni exceptuado. Las perspectivas de la estación futura descendiente de su hermana la lluviosa, provendrán según la aspiración venidera.

Y Dios es quien tiene poder para hacer fáciles los obstáculos y para otorgar los beneficios apetecidos.

Ello es que el rey de los cristianos ha tenido la bondad de donarnos los castillos que habían sido arrancados del dominio del Islam y en cuyas casas de Dios habían sido erigidos los ídolos. Dios las volvió de su sucio estado al perfumado, de la Trinidad a la Unicidad, y tornó a ellas el Islam como torna el padre ausente a sus hijas amadas, para llevar el consuelo a sus vasos lagrimales y enjugar sus delicados párpados. Esos castillos han sido para los cristianos una intrusión en que rara vez, según lo que es sabido, habían establecido los límites, una de las cosas extraordinarias. ¡Quiera Dios continuar otorgando a Nos y a Vos sus excelentes beneficios y que nos prosternemos profundamente en los oratorios de su acción de gracias!

Os comunicamos todos estos asuntos bajo los cuales se halla la interpretación, el buen lado y la prosperidad de parte de Dios, pues fueron cumplidos los detalles difíciles, a fin de que os alegréis por lo que Dios concede a vuestra santa religión y os coronéis vuestra frente con el poder de la nación islámica.»

M. Gaspar Remisc.